بين إغماءة وإفاقة

رواية

هديل عبد السلام

دار دوّن

بين إغماءة وإفاقة

الطبعة الأولى : يناير 2016

رقم الإيداع : 27298/ 2015

الترقيم الدولي : 4-003-806-977-978

تصحيح لغوي : مصطفي السيد سمير

تصميم الغلاف : كريم أدم

تليفون : 01020220053

E_mail: info@dardawen.com

www.dardawen.com

بين إغماءة وإفاقة

رواية

هديل عبد السلام

دَوِّنْ

للنشر و التوزيع

دار دوِّن للنشر والتوزيع

الإهداء

«إلى روح الأسمر المُحارب الخالدة، التي لم يهزمها بياضُ الكفن.
إلى أمل دُنقُل وأوراق الغرفة ٨»

إهداء

إلى القلوب المُعلّقة والأرواح الهشّة، وإلى الهاربينَ من ثغراتِ نسيج الواقع المتهالك.

إلى الحالمينَ جميعهُم، على غرابتهم وغُربتهم.

وإلى الواقعيين الذينَ لم تُفلح ضغوط الواقع في إثنائهم عن التمسُّك بالحياة.

إلى عابري السبيل الذينَ مرّوا من هنا تاركينَ آثارًا طيّبة، أو علاماتٍ موجِعة، أو دروسًا لا تُنسى.

إلى الذينَ رحلوا في هدوء، وإلى الذينَ عادوا ولو لم تُقبَل عودتهُم،

إلى الذينَ عرفوني حقّ المعرفةِ ولم يخلطوا بيني وبينَ خيالاتي،

إلى الذّينَ أُحبُّهم،

وعلى الخصوصِ هو..

تهيئة

هذه الحكاية تحملُ شيئًا من بَعْضِي.. وبعْضًا من كُلّي..

وأشياءً منهُم.. ومن أرواحِهِم..

وأجزاء من ذكرياتي وذكرياتهم..

والفتات، الفتات منه..

هذه الحكاية تحملُ نفحًا من روحي.. وعددًا من خفقاتِ قلبي..

تروي تفاصيلها من عاشتها، لتحكي للعالم تجرِبتها الخاصّة في الهروب..

هذه الحكايةُ مزجٌ بين العوالم الملموسة والمحسوسة..

مزجٌ كونيّ معلّق بيْن الوجودِ واللاوجود..

فهيّئوا أنفُسَكُم للتنقُّل..

ودَعوا الحَذَرَ جانبًا

(١)

صُراخٌ متواصِلٌ هُنا وهُناك يعلو وينخفض، يحتدُّ ويلين إلى أن يصِل إلى الأنين المكتوم.

طفلٌ مصابٌ بالتسمّم بعد أن شرب زجاجة دواء السّعال كاملةً لأنّها بطعم الفراولة، وأمٌّ ملهوفة وجهها مُصفرٌّ شاحب هربت منهُ كُل كريات الدّم، بعد أن رأت شبَحَ الموتِ يحومُ حول وليدها الصغير.

الطفلُ يبكي بهيستيريا دون انقطاع، ليسَ ألمًا ولكن على الأغلب ذُعرًا، يلتقطُ أنفاسهُ بشهقةٍ واحدة كلّما قطع الصراخ عن رئتيه الأكسجين واحمَرّ وجهه، ثُمّ يعود للصراخ من جديد.

طبيبٌ وعدد من الممرضات ملتفّونَ حوله يحاولون تثبيتهُ ليتمكّنوا من إدخالِ أنبوبٍ ما عبر فمه لإجراءِ غسيلٍ لمعدته الصغيرة.

كانت أمي تُشاهِدُهم في تأثُّر شديد ثُمّ تُربّت على كتِف الأم المذعورة والتي أبعدها الأطباءُ عن طفلها ليتمكّنوا من إنهاء عملهم، ثم قالت

لها في مواساة:

ـ ماتخافيش، إن شاء الله هيبقى كويّس، أنا بنتي عملت كده وهي صغيرة وبقت زي الفُل.

قالتها أمي وغالبتها نبرة القلق للسيّدة الباكية.

ظهرَ طرفُ ابتسامةٍ لا تكتملُ على وجه الأم. لا شيءَ يُمكنهُ طمأنةَ ذعرها الآن سوى أن ترى وليدها بخيْر.

ثم التفتت أمي إليّ سائلة:

ـ خايفة؟

ـ لأ، تعبانة.

قُلتها بهدوءٍ باعثٍ على الرّيبة.

صباحٌ خريفيّ كان، أو رُبّما هو شتاء، لم أعد أعرف.

ذلِكَ الطقس المتذبذبُ بين الفصلين، فلا الخريفُ انقضى بأجوائه المتقلّبة، وزهورِه التشرينيّة، وهدوئه المُخيف، ولا الشتاءُ قد أعلَن عن نفسِه بعد بأمطارِه وعواصفِه وسمائه المُلبّدة..

فقط رعشةُ البردِ الأولى، وبعضٌ من وَهَنِ الخضار المائلِ للصُفرة والمواعيد المنسيّة، والقرارات المؤجّلة، والغُبار، الكثيرُ من الغُبار الذي يُضيّقُ الصدور ويقصّرُ الأنفاس.

كنت مُمدّدةً على عربةٍ سريريّةٍ بيضاء في طوارئ المُستشفى بانتظارِ

الطبيب، صحّتي لم تعُد على ما يُرام منذُ الحادث، حتى بعدَ مرور عامٍ ونِصف العام. لا أعرفُ تحديدًا إن كان السبب هو الأثر الجسديّ للحادث أم النفسي، ولم يعد يُهمّني أن أعرف.

اللون الأبيض يلُف المكان، من الأرضية إلى السّقف.

لم أستطِع يومًا اعتياد اللون الأبيض في المستشفيات، لم يستطع عقلي تأويله وتحليله.

لماذا كُل شيء أبيضُ وباهتٌ إلى هذا الحد؟

كُلُّ البشر يعلمون أن الألوانَ مُبهِجة وتبعثُ على الحياة. أما الأسودُ فهو كئيبٌ وأما الأبيض فهوَ باهت، وكلاهما ميّت.

دائمًا كُنتُ وما زلتُ أعتقد أن الأبيض، لونٌ جنائزيّ. فهو ليسَ من الألوان الدنيويةِ في شيء، لونٌ آخريّ. كُلّ الأشياءِ الفردوسيّةِ والآخريّة بيضاء.

الكفنُ أبيض.

الملائكةُ ارتبطت لدى البشرِ دائمًا بالبياض.

لذا فأنا أؤمنُ أن المرضى في المستشفياتِ في حاجةٍ إلى شيء يربُطهم قليلًا بالدنيا، لا أن تضعَ أمامهم كُل ما هو آخريّ وكأنّنا نُهيّئهم للموتِ وليس للشفاء.

الألوان حياة.

فلماذا ننتزعُها من أكثَر الناسِ حاجةً لها لنحبسهم وسط كُل هذا البياض؟!

لماذا نُعدُّهم لاستقبالِ الكَفَن؟!

حتى الزائرون، يأتونَ إلى المشفى حاملينَ زهورًا بيضاء أو صفراء، وكأنّ زيارة المريضِ بوردٍ أحمر يُعدُّ عيبًا وجُرمًا لا يليق.

مرّت نصفُ ساعةٍ أو يزيد وأنا أنتظرُ مرور الطبيب. أكرهُ الانتظار بكل أشكاله، رغم حُبّي للعُزلة والانطواء إلا أنني سريعةُ الملل.

يمُرُّ بي طبيبٌ في مُقتَبل العُمر ليُجري بعضَ الفحوصات الروتينية وينصرفُ سريعًا.

ثمّ تتجّهُ مُمرضةٌ نحوي حاملةً كيسًا به محلول من نوعٍ ما وأنابيبَ شفافة طويلة وإبرة، تُطهّرُ الجلد الذي يُغطّي وريدي استعدادًا لغرس الإبرةِ فيه.

ـ ماتخافيش مش هتوجع قوي.

ـ مش خايفة.

وابتسمتُ ابتسامةً مصطنعة، أشحتُ بعدها بنظري.

أحسستُ بوخز الإبرةِ مرّتيْن فأدركتُ أن الممرّضة أخطأت الوريد وأعادت المحاولة. نظرتُ إليْها في استغرابٍ ممزوجٍ بشيء من العَتَب.

ـ معلش أصل مش باينلِك عروق خالص.

قالتها في توتّر.

في المحاولةِ الثالثة نجحت في غرز الإبرة المدببّة في وريدي التائه. ابتسمت لي في اعتذار:

- الدكتور هيجيلِك دلوقتي.

تابعتُ مراقبَةَ الناسِ من حولي. الأمّ المذعورة هدأت أخيرًا بعد أن أنهى الأطباءُ غسيل معدةِ طفلها وأفرغوا كل ما في بطنِه الصغير. وهدأ بُكاءُ الطفل أيضًا نوعا ما، وظلّ يشهقُ ويتنهّد بينَ أحضانِ أمّه.

سيارةُ إسعافٍ تدوي في الخارج ثُمّ يركضُ عددٌ من الأطباءِ والممرضين في ارتباكٍ نحوَ الباب دافعينَ أمامهُم سريرًا مدولبًا.

ثُمّ يهرعونَ إلى الداخِل من جديد حاملينَ على السرير رجُلًا أربعينيًّا قدمهُ شبهُ مبتورة وتسيلُ منها الدماء في كُل اتجاه. وقد تحوّل لونُ العربةِ من الأبيض إلى الأحمر الدموي القاني.

أنظُرُ إلى أمّي التي بدا على وجهها الذُعر وهيَ تُتمتم:

- لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله.. لا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله.

ثُمّ أصابها التوترُ وظلّت تبحثُ بنظرها عن أي طبيب لتطلُب منهُ الكشف علي لنخرُجَ من الاستقبال.

رمقتني بعدها بنظرةٍ لمستُ فيها شيئًا من الشّك والرّيبة، وكأنّها تتساءلُ ما بالي هادئةً إلى هذا الحد؟.. ثُمّ أردفت مُعاتِبة:

ـ عالية، انتِ سرحانة كده ليه؟.. مش هتبطّلي تسرحي؟

نظرتُ إليْها في هدوءٍ ولم أعطِها أي إجابةٍ مُحدّدة.

كُنتُ أتألّم، أتألّمُ بشدّة، وكان ملاذي الوحيد كيْ يخفَّ الألمُ قليلًا هو خيالٌ جامح وكُرةٌ إسفنجية صفراء أنهَكْتُها ضغطًا على إثر الوجع والعصبيّة المكتومة.

لذا لم أكُن أرغبُ حقًا في تفسير شرودي ومسببّاته في أكثر الأوقات التي كنتُ أحتاجُ فيها إلى الهرب والتناسي.

لذا كانَ الصّمتُ حلًا مقبولًا ومنطقيًا بالنسبة لي.

كانَ المشفى مُزدحمًا للغاية، وملكُ الموت يحومُ حول المكان باسِطًا جناحيْه فوقَ رؤوسنا. وهو على أهْبَة الاستعداد الكامل لخطفِ من يحينُ دورهُ وأخذه بعيدًا عن أحبائه المذعورين.

لا سبيلَ لإبعادِه، أو إثنائِه عن مهمّته، أو حتى تغيير قائمة الأسماء التي يحملُها اليوم. ولا سبيلَ لأعرف إن كانَ لاسمي مكانٌ ورقمٌ على هذه القائمة أم لا، ولم يكُن يُهمّني كثيرًا أن أعرف.

قضيتُ الساعة التي قضيناها في الاستقبال معلّقةً بين عالميْن. فلا أنا في الواقع ولا أنا بمنأى عنه.

صِرتُ أميلُ إلى العُزلة مؤخرًا، كُل من حولي صاروا يشتكونَ انفصالي عنهم، وابتعادي التدريجي المنهج عن كُل شخصٍ مهم في حياتي، صرتُ أميلُ إلى التحديقِ في الفراغ وفي السّقوف وفي الزوايا، وإلى التكوّر في الأركان الهادئة، إلى قراءة نفس الكُتُب عدّة مرات، وإلى الرّسم المُبهم

غيرِ المفهوم، صرت أميل إلى الأماكن المظلمة الهادئة. وبتُّ قليلة الكلام للغاية، بل أنه أصبح من النّادر أن أفتح حديثًا أو أشارك في آخر فُتِحَ معي، صرتُ هادئةً وانعزاليّة بشكلٍ مُريب، وعلى غير ما اعتاد الجميع منّي صرت أتأخّرُ عن مواعيدي وأنساها وأتغافلُ عن واجباتي تجاهَ كُل من حولي، لا أتأثّرُ بحُزنهم ولا يهمني غضبهم ولا حتى غيابهم.

كعادتي، ظللتُ أراقبُ الناس وأنسجُ عنهم قصصًا وحكايا لا وجودَ لها ولا سنَد، وأخترعُ لهُم أسماءَ وتواريخ من مخيّلتي، وأحاول ربطها بالقليل الذي أملكُه من الحقائق عنهم.

كيف شربَ الطفلُ زجاجة الدواء؟ لماذا وُضِعَت بالقُربِ منه؟ هل لأنّهُ يُحبُّ طعمها أم أنّهُ كان يجرّب؟ أينَ أبوه؟ لماذا لم يحضُر حتى الآن؟ ربّما طلّق أبوه أمّهُ منذ فترة ولم يعُد يعرفُ عنهم شيئًا. الأمّ كانت تبدو حزينة، ليسَ حُزنًا مؤقتًا سببه الموقف الطارئ لابنها، كان وجهها يبدو وكأنّ نهرًا من الدّمع جرى فيه وتخلّد، هو حزن معتاد ومكرر. قد تكون فقدت زوجَها في حادث سيّارة، أو ربما خانها وتزوّج بأخرى تاركًا خلفهُ أولادهُ كاليتامى، رُبّما يعانونَ من علاقةٍ غيرِ مُستقرّة، كانت الأم فتاةً عشرينيّةً لكنّها كانت تبدو وكأنّها طاعنةٌ في الكهولة.

كيفَ بُتِرت رجل الكهل بهذه الطريقة؟ ربّما يكون عامل مصنع وقد فرمت رجله إحدى المعدّات بخطأٍ فنيٍّ ساذج. أو رُبّما كان حادثًا فلم تسعفهُ حركتهُ البطيئة في إنقاذ نفسه. ماذا سيفعلُ الآن؟ كيف سيصرفُ على أولاده؟

يبدو فقيرَ الحالِ ولا يملكُ ثمنَ القدم الاصطناعية. أو تُراهُ وحيد؟! فقد مرّت نصفُ ساعةٍ ولم يأتِ أحدٌ إلى المشفى مذعورًا يبحثُ عنه. لا أخٌ ولا ابنٌ ولا زوجة. رُبّما يكونُ من مدينةٍ أخرى وأتى إلى هُنا للعمل ولم يعلَم أهلهُ بحادثهِ بعد.

- سرحانة في إيه كده يا عالية؟

قالها الطبيب الذي ظهر أمامي فجأةً من العدم حاملًا ملف بياناتي وأرفقها بابتسامةٍ مُنهَكة.

صارَ معظم الأطبّاء والممرضين يعرفونني هنا، خلال العام الماضي زُرتُ هذا المشفى أكثر من أي مكانٍ آخر في المدينة، حتى صِرتُ أحفظ أروقته شبرًا شبرًا.

سألتهُ بفضول:

- هو الراجل اللي رجله مقطوعة ده رجله اتقطعت ازاي؟

أجابني بابتسامةٍ أقلَّ اتساعًا:

- المكنة في المصنع أكلتها.

اتّسعت ابتسامتي قليلًا لأنّ إحدى خيالاتي كانت في موضعها ثُمّ اختفت تمامًا بعد أن علمتُ بأنّهم لم يفلحوا في إنقاذِ رجلِه فتمّ بترُها من فوقِ الرُّكبة.

أعلن الطبيبُ بعدَ أن أتمّ كشفه:

ـ عالية، معلش إحنا مضطرين نحجزك معانا في المستشفى كام يوم.

بدأت عيناي تدوران إلى اللاوجهة. ثمّ تمتلئان بدموعٍ لم يئن لها أن تغادر جفنيّ، ورفضٍ مكتوم.

رُغم اعتيادي المستشفيات إلا أنني في كُل مرّةٍ يُقِرُّ فيها الطبيب بحجزي ينتابني شعور السّجن والتقييد، وكأنّها المرة الأولى.

انصرفَ الطبيب واقتربت أمّي محاولةً تهدئة الموقف:

ـ عالية، انتِ مش صغيرة، هُما كام يوم وهيعدّوا إن شاء الله.

كانت تعلمُ جيّدًا أنني لا أريدُ البقاء هنا، خصوصًا في الفترةِ الأخيرة، بعدما صرتُ بالكادِ أغادرُ حوائطَ غُرفتي الأربعة. وأنني عنيدةٌ كطفلةٍ في الثالثة من عُمرها. لكن لا فرار من قرار الطبيب، كلانا نعلمُ ذلك.

تم نقلُنا إلى غرفةٍ مُزدوجة.

تفحّصتُ الغرفة بعيني سريعًا قبل أن أتّجه مُباشرةً إلى الحمام المُلحقِ بالغرفة، لحقتني أمي مُسرعةً لتمنعني من غلق الباب بالمفتاح.

لا أعرف ما الذي تخشاهُ أمي في غلقِ الباب، أعلم أنها لم تنسَ اليوم الذي مكثتُ فيهِ في حمامِ غرفتي لِست ساعاتٍ متواصلة، لكنني أجبَنُ من أن أؤذي ذاتي على أَي حال. فما الذي يمكن أن يحدُث إذًا.

تجنّبتُ نظرتها المُحذّرة وأردَفت:

ـ ماتخافيش.

قبلَ أن أُغلقَ الباب في عصبية.

اتّجهتُ إلى حوض الماء في رُكن الحمام، فتحتُ الصنبورَ البارد وشرَعتُ أمسحُ مُقدّمةَ شعري وأنا أُحَدّقُ في المرآة الصغيرة التي تعلو الحوض.

أطَلتُ النّظر إلى حدقة عيني البُنيّةِ المتسّعة وكأني أبحثُ عن شيءٍ ما. تفحّصتُ بِركتيْ السواد تحتَ عيني ولونَ الشّحوب الذي يكسو وجنتيّ ورأيتهُ كأنهُ يتّسعُ أمامي، وكأنّ الدم ينسحبُ للتوْ من عُروقي.

لم يبقَ فيّ من ملامح الجمال سوى شعري البنيّ الطويل والذي بدأ التقصّفُ والتساقط يزحفُ إليهِ مؤخرًا، وغمّازةٍ وحيدة في خدّي الأيمن.

ابتسمتُ ابتسامةً مُصطنعة للمرآة وكأنّي أحاولُ التأكّد أن الغمّازة ما زالت هنا.

كنت دائمًا على تمام الاقتناع أن الغمازة الوحيدة تجلبُ سوء الحظ، لا أعرف لماذا.. لكنني كنت أعتقدُ أن سيّئي الحظ فقط هم من يحصلونَ على غمّازةٍ وحيدة، وأن هؤلاء لن يُحبّهُم أحد وسيظلّونَ وحيدين إلى الأبد. حتى أقنعني (آدم) أن هذا ليسَ صحيحًا، وأنّ غمّازتي الوحيدة هي أكثرُ ملامحي جمالًا، وأن ظهورها مع ابتسامتي يُجبرهُ على الابتسام هو الآخر. وكان يعتبرها تميمةَ حظّه.

أذكرُ المرة الأولى التي رأيتُ فيها آدم في الجامعة، كُنتُ أجلسُ وحيدةً كعادتي في انتظار صديقتي (نور)، رأيتهُ يخطو نحوي من بعيد قبلَ أن يجلس على الطرفِ الآخر من المقعد الخشبيّ الأخضر. كان شابًّا نحيفًا

فارع الطول يملك عينين واسعتين لوزيّتين، وملامح دقيقة وحادّة وهيئةً مهندمة.

نظرَ نحوي في صمتٍ وتجنّبتُ بدوري النّظر إليه.

ـ صباح الخير، أنا آدم.

قالها وهو يمدُّ يدهُ للمصافحة.

ـ عالية.

قُلتُ باقتضابٍ، ومددتُ بدوري يدًا مُرتعشةً بالكاد لامست كفّهُ قبلَ أن أسحبها سريعًا. وأتبعتها بابتسامةٍ منقوصة لكنها كانت كافيةً لتبدو غمّازتي الوحيدة واضحةً على خدّي الأيمن المُنفجرِ احمرارًا.

ـ عارفة إن البنات اللي عندهم غمّازة واحدة بيعتبروا أجمل من غيرهم.

قالها متحاشيًا النّظر إليّ. ولم يسمع تعقيبًا مني فأضاف:

ـ وبيبقوا محظوظين، وبيجيبوا الحظ للناس اللي يعرفوهم، الناس بتتفائل بيهم.

هنا التفت إليه وقلتُ بثقة وإصرار:

ـ الكلام ده غلط.

ضحكَ عن آخره وبدأ في شرح وجهة نظره واعتقاداته عن تمائم الحظ ومسببات تفاؤله وتشاؤمه.

قطعَ حبل أفكاري طَرَقاتُ أمي المتتالية على الباب. خرجتُ إليهم أجُرُّ جسدي المنهك لأجلس على طرفِ السرير أحبسُ دموعي ورفضي للبقاءِ في هذا المكان.

أبي ينظُرُ إليّ في شفقةٍ من بعيد. ثُمّ يخْرُجُ من الغرفةِ ليُخاطبَ الطبيب المُشرف على حالتي. وأمّي بحزمٍ تُعاتبُني على دراميّتي الزائدة.

كانَ هذا هو موعدَ الزيارة، لذا كانَ بإمكان أمي البقاء هنا بجانبي لبعض الوقت.

نظرتُ إليها بشيء من الحقد، وكأنّها المسؤولة عن كُل ما يحدُث، ثُمّ أمسكتُ برأسي قابضةً بعُنف على خُصلاتِ شعري وأخذتُ وضعَ القُرفصاءِ على السرير وشرعتُ أهتزُّ في توتّر وأردّدُ بلا توقّف:

ـ مش عايزة أقعد هنا.. مش عايزة أقعد هنا.

ظللتُ أكرّرُها كالأطفالِ بطريقةٍ مُوتّرة للأعصاب، مما أثارَ غضبَ أمّي التي بدأت وصلةً من العتاب.

وفجأة سكَتَ كُل شيء بداخلي ومن حوْلي، وكففتُ عن التذمّر وفقدتُ إحساسي بالعالَم الملموس حين رأيتُ طفلةً في الخامسة أو السادسة من العُمر، تتكوّرُ محتضنةً دُبًّا محشوًّا أزرق اللون، تنزوي في رُكن السرير المجاور في هدوء، عيناها مفتوحتان فزعًا، ويبدو على وجهها الحُزن.

كُنتُ أراقبُ تحرّكاتها ودوران عينيها بتركيزٍ أفقدني القُدرة على سماعِ صوت أمي المُعاتبة.

الحزن لا يُناسبُ الأطفال، يبدو غريبًا عليهم حين تراه، وكأنّك ترى خنزيرًا يطيرُ بجناحيْن أبيضيْن أو حمامةً تسبحُ في عُمق البحر.

الأطفالُ تناسبهُم البهجة، خُلقُوا للّعِب.

لماذا هذه الطفلةُ هُنا وحدَها؟.. كيف تركتها أمُها وحيدةً ولو لدقيقةٍ واحدة في هذا المكان الموحِشِ؟ تبدو خائفةً جدًا.

الأطفالُ خوفُهُم فطريّ، لكنّه خياليٌّ أيضًا. لذلك يقولون إنّني ما زلتُ طفلة لأني ما زلتُ أخافُ أشياءً خياليّة في نظرهم ولكنّها على مُستوى التنسيق بين عقلي الظاهر والباطن حقيقيةٌ إلى حدٍّ كبير.

ظهرَ شابٌّ ثلاثينيٌّ عند باب الغرفة فقفزت الطفلة من السرير وانطلقت تجاهه، وقف ممسكًا بيدها وهو يراقبُ الممرضة تساعدُ سيدةً ـ يبدو أنها زوجتهُ ـ على مغادرةِ الكُرسيّ المدولَبِ والصعود إلى السرير.

اتّجه وفي يده الطفلة نحو سرير السيّدة وطبعَ قُبلةً على رأسها، فتمتمت ببعض العبارات المُوصية، ثُمّ ودّعها وخرجَ من الباب والطفلةُ تلوّحُ بيدها مودّعةً إلى أن اختفت عن ناظري.

جاء الطبيبُ برفقةِ والدي من جديد ليُعلن أنّي في حاجةٍ إلى بعض الأشعّة والفحوصات وهو ما معناهُ أن أقطع الطريق من هذه الغُرفة وحتى غُرفة الأشعّة. أي نصفَ مساحة المشفى تقريبًا. جاءت الممرضة تدفعُ أمامها الكرسيّ المدولَب فنظرتُ إليْها في ذُعر، ثُمّ نظرتُ إلى أبي. وأبعدتُ الكرسيّ برجلي من أمام السرير وحاولتُ تمالُك قوايْ والوقوف.

قالت أمّي بحزم:

ـ المسافة طويلة وانتِ تعبانة يا عالية، اقعُدي ع الكرسي وهتبقى آخر مرّة إن شاء الله.

أجبتها وتكادُ الدموع المحبوسة تغادرُ الجفنين:

ـ لأ.

تدخّل أبي محاولًا إنقاذَ الموقف:

ـ عشان خاطري أنا يا عالية أقعدي ع الكُرسي وغمّضي عينك وهُما دقيقتين وهتلاقينا وصلنا.

بعد محاولاتٍ عدّة.. استسلمتُ في النهاية.

أغمضتُ عيني طيلة الطريق من وإلى غُرفةِ الأشعّة. وبدأت أوتارُ عقلي تعزفُ ألحانًا مختلفة وصاخبةً لتُغطّي على كُل ما حولي من أصوات، كصوتِ عجلات الكُرسي، وصوت أبي والطبيب في الحديث الجاد بينهما حولَ حالتي، وصوت الممرضات والأطباء والمرضى، صوت أزيز مصابيح النيون المُزعج، ودويْ الإسعاف القادم من الخارج، وصوت دقّات قلبي المتسارعة.

بدأت الفراشات في الانطلاق في جنبات رأسي كوسيلةٍ دفاعيةٍ لمواجهة حدوث أشياءٍ لا أرغبُ بها.

بدأتُ في عد الفراشات التي كانت ألوانها تتغيّرُ باستمرار. بدأتُ

في تخيُّر ألوان الفراشات المفضّلة وفصلها بحركةٍ طفيفةٍ من يدي عن باقي السّرب.

ظللتُ على هذه الحال إلى أن أعلن الطبيبُ انتهاء الفحوصات.

وتمّ نقلي إلى غُرفتي والتي قيلَ لي إنني سأستقرُّ فيها أيامًا قليلة سيُحددها الطبيبُ المتابع فيما بعد.

لم يكُن ضمن إطار اهتماماتي أن أسأل عن حالتي، وعن تطوّرها، كُل ما يربطني بهذا العالم لم يعُد يُثيرُ اهتمامي أو فضولي، فأنا هُنا فقط لأني لا أملُكُ المغادرة.

سريرا الغُرفةِ كان يفصلُ بينهُما ستارٌ أخضرُ سميك، وسريري هوَ المجاور للنافذة التي تُطلُّ على اللاشيء. بجانبها ما يُشبهُ موقف السيارات وأنا أكرهُ السيّارات.

لا حدائق، لا أزهار، لا خُضرَة، لا شيء في المُطلق، فقط مساحةٌ واسعةٌ من العدَم والعجلات.

جاءَ إليَّ أبي بعدَ أن أنهى مناقشاته الطويلة مع الأطباء وقالَ في لُطفٍ وهدوء:

ـ أنا هاروح البيت أجيب شوية حاجات، أجيبلك إيه وأنا جاي؟

أخرجتُ من حقيبةِ أمّي ورقةً مجعّدة وقلمًا وشرعتُ في كتابةِ قائمة أشيائي دون أن أنطقَ بكلمة.

كتبتُ قائمةً طويلة من أشياء تلزَمُني وأخرى طلبتُها فقط لأجلِ الاطمئنان بوجودها بجانبي.

نظرَ أبي إلى الورقةِ نظرةً عابرة ووجّه السؤال إلى أُمّي:

ـ عاوزة إيه من البيت؟

وبدأت هي بدورها في إملائه عددًا من الطلبات التي بدت طبيعيّةً واعتياديةً جدًا إذا ما قُورِنت بطلباتي.

عادت الممرضة حاملةً كيس المحلول إيّاه والإبرة والأنبوب:

ـ معلش هنعلّقلك المحلول عشان الدكتور منع الأكل من دلوقتي.

لم أُبدِ اهتمامًا بالمعلومة الجديدة إذ لم تكن تُشكّل فرقًا لديْ كغيرها من المعلومات التي تخُصّ حالتي، كما أنني لا أهتمُّ بفكرة الطعام إلى هذا الحد، ونادرًا ما أُدركُ أنني جائعة، أمّا أمّي فبدأت مناقشة الممرضة وانهالت عليْها بعددٍ من الأسئلة. لماذا؟ إلى متى؟ وبالنسبة للشُرب؟ أليس عدمُ الأكل خطرًا عليْها؟ هل سيتحمّلُ جسدُها الهزيل؟

كانَ جسدي هزيلًا حقًا، وفي الفترة الأخيرة، صارَ تناقُص وزني غير مُسيطرٍ عليه، مما أنهكَ جسدي أكثر.

أجابت الممرضة على ما استطاعت من أسئلة وتركت البقيّة للطبيب المتابع والذي وعَدت الممرضة بإخباره بأن يمرّ على أمّي ليشرَح لها الوضع.

بعد غَرز الإبرة في وريدي من جديد وإحساسي بتسرّب المحلول في عروقي، أغمضتُ عيني لأسبَحَ في الفراغ.

عالية، هذا هوَ اسمي والذي نالني منهُ نصيبٌ كبير، أو هكذا صِرتُ أعتقد مؤخرًا، فبعدَ عُزلتي الإرادية تلك صرتُ معظم الوقت أسكُنُ عالمًا مختلفًا عن عالمهم الواقعيّ القبيح، يقعُ في مكانٍ عالٍ جدًا. أذهبُ إليه كلّما ضغطت عليّ تناقُضات الواقع وقسَت عليّ أحوالُه.

لذا أشعرُ أنّي أسقُطُ من علوٍّ شاهق كُلّما أيقظني أحدُهم بجملة: «انتِ سرحانة في إيه؟».

أشعرُ بارتطام جسدي بالأرض في كُلّ مرّة يُنبّهني فيها أحد، وأتألّم بشدّة. وكان لأُمّي نصيبُ الأسد في معظم سقطاتي، فهيَ تكرهُ هذه العادة، وتعتبرُني مجنونة، وقد طلَبت من أبي أكثر من مرّة عرضي على طبيبٍ نفسيّ خاصةً بعدَ الحادث، لكنّهُ رفض الفكرة جُملَةً وتفصيلًا.

كانَ يرى أنني تعاملتُ مع الحادث بعقلانيّةٍ واتزان، وأنني استطعتُ تخطّي الأزمة بأقل خسائر ممكنة. وكانَ هذا هو ما بدا عليْ حقًا في الشهورِ الأولى من بعد التعافي، كنتُ بخير، هكذا كنتُ أعتقد، وهكذا اعتقدَ كُل من حولي.

كُلّهم أخطؤوا، لذا صارَ حقًّا لي وحقًا عليهم أن أبتعد عنهم، كلّهم اتفقوا أنّ أفضل طريقةٍ لمُعالجة الحادث هو تجنُّب الحديث عنه، رُغم أنهُ لا سبيلَ لاستعادة ما فُقِد، وما فُقِد لم يكُن بالقليل، ولا جدوى من الهروب من الحقائق، هُم أجبروني على الهروب حتى صاروا لا يملكونَ السيطرة على ما وصلتُ إليه من التمادي في الهرَب حدَّ الانفصال.

هُم أرادوا أن أنسى، لأنّهم اعتقدوا جدلًا أنّ ما كان يُعذّبني هو شعورٌ صارخٌ بالذّنب أرادوا محوَه، لكنّهم لا يعرفونَ الفقد، ولم يتمكّنوا من التعامُل معه.

لذا صرتُ وحدي وسعيدةٌ بذلك وراضية.

ومع ذلك فقد نسيت، لم أعُد أذكُر مشاهد الحادث، ولا تفاصيله، كُل ما أذكرهُ أن شيئًا ما جللا قد حدث، وأنّي لن أعود كما كُنت.

أعيشُ على هذا الكوكب منذُ ٢٣ عامًا وبضعة أشهر. وابتدَأتُ عُزلتي منذُ ما يُقارب نصفَ العام.

أحِبُّ الفراشات حدَّ الجنون، أتفاءلُ بها، أصوّرُها، أرسُمُها في كُل مكان وأبحثُ عنها طول الوقت، أؤمنُ بها أكثر من إيماني بالبشر وبالحياة، أؤمنُ بقوّتها وعِنادها، وبسِحرِ الهشاشةِ في جناحيْها. وأؤمنُ أنها تطيرُ حاملةً أرواح أناسٍ آخرينَ من عوالم أُخرى، أو أنّها تحملُ نُسخًا أجمل وأطهر من أرواح البشر الموجودين هنا.

أحِبُّ شعري البُنيّ المتهدّل على كتفي. أرفضُ قصّه وأعتني بهِ كابني الصغير الوليد. فشعري يُمثّلُ لي الكثير نفسيًا. وقلّما ألجأُ إلى تقييده وربطه.

أدرُسُ في السنة الأخيرة من الجامعة بعدَ تعثُّري مرتيْن في منتصف الطريق. ومنذُ اليوم الأوّل في الجامعة وأنا أسألُ روحي نفسَ السؤال كُلَّ صباح: «هل هذا هو مكاني؟ هل هذا ما أريدُه؟ هل أنتمي حقاً إلى هنا؟»

ورُغمَ أن الإجابة كانت تعودُ إليَّ في كُل مرّة بالنفيْ القاطع. إلا أنني لم تواتِني الجُرأة للتوقّف وأخذ نفسٍ عميق، ثُمّ تغيير الوجهة. فبقيتُ ثابتةً في مكاني رُغم علمي بأنّي فقط (لا أنتمي إلى هُنا).

دراستي كانت كغيرها من اختيارات حياتي، غير محسوبة، ليسَ لخطأ في حساباتي، ولكن لقصورٍ في قُدرتي على تقدير رغباتي وأهدافي، قصورٍ لم تُفلح السنوات في علاجه حتى اليوم.

كُنت على تمام اليقين أنني لا أرغبُ في استكمال دراستي، وأنه لا جدوى مما أفعله، لكنني لم أعرف البديل، لم أملُك وجهةً أخرى، بوصلتي المشوّشة لم تُفلح في إيجاد اتجاهٍ آخر، ففضّلتُ البقاء على شاطئ لا أعرفُ فيه أحدًا على إلقاءِ نفسي في بحرٍ لا أعرف إلى أينَ سيقودني.

وها أنا، على الشاطئ، وحولي كُل من أعرفهم، ومع ذلك فأنا وحيدةٌ تمامًا، وأهربُ منهم جميعًا، وأتعثّر في الطريق كُل حين.

الشيء الآخر هو «التصوير»، أحيانًا أشعُرُ أنّي كُنتُ أصوّرُ كُل شيء لأحتفظ بذكرى هذا العالم حين يحينُ الوقت وأنتقلُ بشكلٍ كامل إلى عالمي الخاص.

تماماً كالرحّالة الذي يصوّرُ كُل شيء في كُل مدينةٍ يمرُّ بها ليحتفظ بشيء منها حين تخونُهُ الذاكرة وينسى ما رآهُ من أماكن وبشرٍ وأشياء.

توقّفتُ عن التصوير وأخفيتُ كاميرتي في إحدى زوايا دولابي حتى كسَتها الأترِبة، كان ذلكَ منذُ عدّة أشهر حينَ أدركتُ أنني لا أستطيعُ

اصطحابَ كاميرتي معي إلى عوالمي الأخرى والتي صارت تأويني أكثَر من كُل الأماكن هنا، وكنتُ قد وصلتُ إلى اقتناع تام أنه لا شيء هُنا يستحقُّ التصوير، لا شيء يصلُحُ للذّكرى في هذا الواقع الفارغ.

لماذا لا نستطيعُ تصويرَ الرُّؤى؟ إنّها مليئةٌ بأشياء تفوقُ أعتى المخيّلات. لماذا لا نستطيعُ تصويرَ رؤانا؟ أنا أملكُ عالمًا كاملاً هناك، بنيتُهُ بنفسي حجرًا حجرًا، فقط لو أستطيعُ أن أريه لأمّي، ربّما وقتها ستعلمُ لمَ أتركُهم وأذهبُ إلى هناك!

أملُكُ مكتبةً قوامُها يفوق المئتيْ كتاب، قرأتهم جميعًا، وقرأتُ عددًا منهُم عدّة مرّات. تدورُ مواضيعُ معظم كُتبي حولَ قصصٍ خيالية وروايات من عوالم أخرى. أمّي تقولُ إن الكُتُب هي التي طيّرَت عقلي مؤخرًا، وتلومُ أبي دائمًا على استمراره في جلبها لي. ذاكَ أنّها صارت من الرّفقاء القليلين لي، كُتُبي وقطّي الرمادي السّمين وصناديق الموسيقى.

ليست لديْ أيُّ ميولٍ انتحارية، ولم أفكّر في الانتحار كوسيلةٍ للخروجِ من مأزق الواقع الذي علقتُ به. فأنا هُنا لسببٍ ما، وإن كنتُ لا أعرفه، وسأغادرُ متى ينتفي عنّي ذاكَ السبب.

لم أستطع تأويلَ الموت حتى هذه اللحظة، لم أستطع فهمه، ولا أصدّقه، رُغم أنهُ حامَ من حولي وتوقّف أمامَ وجهي مباشرةً أكثرَ من مرّة.

كان آخرُها حادثًا تسببّتُ فيه منذُ عام ونصف، لم أعُد أذكُرُ تفاصيلَ ما حدث، نسيتُها أو تناسيتُها رُبّما عمدًا إلى أن صارت ضبابيّةً في ذاكرتي،

كُل ما أذكرهُ أنه كانَ يومًا غائمًا، وكانَ الصّداع يعصفُ برأسي، وكانت من المرّات القليلة التي قُدت فيها سيارتي لمدّةٍ طويلة، لا أذكُرُ كيف حدث ذلك لكن في لحظةٍ مشؤومةٍ ما، اختلّت عجلةُ القيادة في يدي وسطَ مُناقشةٍ حادّةٍ مع «خالد».

فقدتُ الوعي بعدها، واختفى خالد من حياتي بعدَ أن كُنّا قد اتفقنا على الافتراق قُبيْلَ الحادث.

قضيتُ ما يُقارب الشّهريْن وقتها في المشفى، أكثرَ من نصفهم كُنت غائبةً عن الوعي، أو ما بينَ الحياةِ واللاحياة.

عادت بعدها حياتي إلى مجراها الطبيعي. فقط اختفى خالد، ولم ألمس عجلة القيادة من يومها.

حَطّت أمامي على النافذةِ المُغلَقة حمامةٌ رماديّةٌ مطوّقةٌ بريشٍ أخضرَ وبنفسجيّ لامع يُحيطُ رقبتها، يفصِلُ بيني وبينها الزجاج، ابتسمتُ لها ابتسامةً خفيفة وشعرتُ أنها تبتسِمُ لي بدورها، أو تُتمتِمُ بسرٍّ ما لا أتبيّنُه، همستُ إليْها بنصيحةٍ صغيرة، ألا تتوقّفي عن الطيران ما ظلّ جناحاكِ قادرينِ على حملِك، طيري ما استطعتِ بعيدًا عن وحشيّةِ هذا العالَم، طيري وانظُري إليْهِم من عُلُوٍّ كما أفعلُ أنا، فالصورةُ تبدو أجمل بكثيرٍ من بعيد، لأنّ التفاصيل على قدرِ ما بها من جمال فإنّها تُبرزُ كُلّ القُبحِ الكامن أيضًا. القُبحُ الذي يتلاشى حين نبتعِد ونعلو.

ـ لو بتكلّمي الناس قد ما بتكلّمي الحمام والفراشات والقطط، يمكن كُنّا فهمنا دماغك دي فيها إيه.

(قالتها أمّي قاطعةً حبل خيالاتي كعادتها لأسقُطَ من علو)

أنا لستُ وحيدة، لكنّ الوحدةَ التي تنتابني هي شعورٌ داخليّ نابعٌ من انفصالي الإرادي عن عالمنا الحقيقي، عالمي الموازي يرفُضُ الإصغاء إلى تنبيهات عقلي المستمرّة.

لا أرى مُشكلَةً في أن أعيشَ مُتنقّلةً بين عالمين. فأنا لا أملُكُ الاختيار. لا أستطيعُ العيش دون أمي وأبي وأصدقائي جميعًا رُغم ابتعادي المتزايد عنهم، وعالمي الافتراضي يعزلني عنهم لفتراتٍ مؤقّتة. وفي نفس الوقت لا أملُكُ التخلّي عن خيالاتي بكُل ما تحملُ من جُموح. أنا لستُ مريضة، أنا فقط حالمة.

أغمضتُ عيني في محاولةٍ لتقبّل العودة للواقع وفتحتُها، سألتُ أمي في ضجر:

ـ بابا لسّه ما جاش؟

ـ لأ ما انتِ طالبة حاجات كتير ولسّه هيعدّي على السوبر ماركت يشتريلنا حاجات.

ـ هو إحنا مطوّلين هنا؟

ـ الله أعلم يا عالية.

كان الألمُ يعتصرني لكنّي اخترتُ تجاهُله، لأني لا أملُك خيارًا آخر. لقد أعلَن الطبيب المُتابع، أن المسكّنات هيَ آخرُ ما سنلجأُ إليه وأنّهُ لن يستعملَها إلّا في الحالات القصوى جدًا وبالتالي لم يكُن أمامي حلٌّ سوى

تجاهُل الألم. فالشكوى لن تُفيد، والبُكاء سيُرهِقُني وحدي وسيُزعِجُ من حولي.

وَصَل أبي أخيرًا حاملًا أشيائي التي طلبتُها.

ـ شُفتي كُنتِ ناسية إيه؟ (قالها أبي وأشارَ بيدِهِ حاملًا هاتفي المحمول.)

أخذتُهُ من يدِهِ ونظرتُ نظرةً عابرةً على القائمةِ الطويلة من الرسائل غير المقروءة والمكالمات التي لم يُردّ عليْها.

وفكّرتُ للحظة: هل حقًا نسيتُ أن أطلُب من أبي إحضاره أم أنني تناسيْتُ عمدًا؟ وهل ساهَمَ عقلي الباطن الذي أشعرُ أحيانًا أني أفقدُ السيطرة عليْه في هذه المحاولة الصغيرة للانفصال التّام عن أصدقائي الذين لا يعرفون حتى الآن في أيّ مُستشفى أقبع!

ركَنتُ ظهري على الوسادات المرتفعة وعدّلتها أمّي في محاولةٍ لجعلي أكثر راحة، هيَ لا تعلمُ أن الألم المتنقّل بين أوصالي يجعلُني لا أفرّقُ نهائيًا بين الوسادة وهي معتدلة أو مُنزلِقة.

احتضنتُ دُبّي المحشو الذي أحضرهُ أبي معه وتفحّصتُ الرسائل:

رؤى: «انتِ كويسة يا عالية؟.. انتِ فين يا بنتي؟»

هبة: «انتِ مابتردّيش على موبايلك ليه؟»

نور: «أنا شوية وهاتصل بالأقسام أسأل عليكِ، ومامتك كمان ما بترُدّش.»

ورسائلَ أخرى بأسماءٍ مختلفة وكان آخرها:

آدم: «أنا عارف يا عالية إنّك مش عاوزة تسمعي منّي حاجة وإن انتِ اللي اخترتي ده، بس صحابك بيدوّروا عليكِ وكلّموني، يارب تكوني كويّسة»

وضعتُ الهاتفَ بجانبي وأنا أنظُرُ إليْهِ في حيرة، هل أُخبرهُم أني في المستشفى؟ لكن وقتها سيأتونَ لزيارتي بالتأكيد، وأنا لا أقوى على رؤيةِ بشر.

المرضُ أتاني في الوقت المناسب، أنا في حاجةٍ إلى الانعزال أكثر، لم يعُد وجودي حولَ البشر جيدًا لي أو لهُم، لا أنا أحتملهُم ولا هُم صاروا يحتملونَ هدوئي ونوباتي وصمتي المُريب.

لكنهم سيعرفونَ في كل الأحوال فلماذا أزيدُ قلقهم؟.

أمسكتُ الهاتف مرّةً أخرى وشرعتُ في كتابةِ رسالةٍ موّحدة: «أنا في المستشفى المركزي» هكذا فقط وضغطتُ زر الإرسال.

في نفس اللحظة رنّ الهاتف باسم نور. ابتسمتُ ابتسامةً خفيفة ورددتُ عليْها فشرعَت تصرُخ في وجهي كعادتها عندما أتصرّفُ تصرّفًا صبيانيًّا في نظرها.

تركتُها تُفرغُ الشحنة كاملةً وأنا صامتةٌ تمامًا. هيَ لا تنوي الاستماعَ إليّ قبل أن تُنهي كلامها على أي حال.

«نور» هي صديقتي الأقرب على الإطلاق، وذلكَ رُغم اختلافاتنا

الجوهرية جدًا. فأنا خياليةٌ إلى أقصى الحدود، أما نور فهي واقعيةٌ لا تُغادرُ قدماها الأرض، لا تؤمنُ سوى بالملموس، وما عدا ذلكَ فهوَ وهمٌ لا يعوّلُ عليه.

«نور» ذات الوجه الممتلئ المنقوش بالنّمش، والشعر الأسود الغجريِّ المُجعّد، لم تُحاول مرّة أن تُثنيني أو تمنعني عن خيالاتي وهي أكثرُ من يتحمّلُ صمتي وهروبي في الفترةِ الأخيرة. ولم تُعلّق يومًا على هذا الموضوع بالسّلب أو الإيجاب. وعندما أحدّثُها عن أشياءٍ تتعارضُ مع واقعيتها تستمعُ في هدوء وتهزُّ رأسها دون أن تنطقَ بكلمة. أعلمُ أنّها لا تصدّقُني أحيانًا، وهي تعلمُ أنني أعلمُ ذلك، لكنّها فقط تؤمنُ أن من حقّي عليْها أن تستمع إلى كُل ما أقول حتى إن كان يتنافى مع كُل مبادئها الوجودية والمنطقية.

في المُقابل أنا أيضًا أستمعُ ساعاتٍ وساعات لقصصها وحكاياها عن «عادل» ابن الجيران وقريبها، وعن «رامي» زميلنا في الكليّة ذي الشعر الفاتح والعيون العسليةِ السّاحرة. أستمعُ باهتمامٍ شديد رغم ما أرى في القصص من سطحيةٍ ورومانسيةٍ زائدة. رُغمَ أني أعلمُ جيدًا أن الهدف من قصصها ليسَ الرومانسية على الإطلاق، فأنا أعرفُ نور حقَّ المعرفة، الأمرُ بالنسبةِ لها فقط حسبةٌ رياضية بحتة. يظهرُ هذا حين أسألها السؤال الجوهري الأهم على الأقل بالنسبة لي: «انتِ فعلًا بتحبّيه يا نور؟»

وتكون الإجابة بعد فاصلٍ من الضَحِك: «هو أنا لحقت أحِب

ولا أكره يا بنتي، أنا بطّلت أحِب يا عالية، هو مناسب، الحسبة بتقول إنّه مناسب، وده الأهم»

نور، والتي كانت هشّةً ورقيقة منذُ سنتين فقط، تعرّضت لصدمةٍ مُبكّرةٍ في أولى علاقاتها، أجبرتها على التخلّي مؤقتًا عن كُل أفكارها الرومانسية، وعن الحُب المثالي الذي كانت تؤمنُ به، وتحوّلت إلى شخصيّةٍ شديدة الصلابة كما يبدو لمن يراها، ومن الصّعب التأثيرُ فيها، لا أعلمُ حقًا إن كانت نور ما زالت تملُك في داخلها ذات القلب الغَض الحالم، لكنّها الآن تُنكرُ ذلك، وأنا ولأنّي أعلمُ كم أنا صديقةٌ سيئة لم أعُد أولي اهتمامًا كافيًا لأعلم ما بداخلها الآن، وإن كانت حقًا قد استطاعت التعافي من سقطتها الأولى وجُرحها الذي رأيتُه ينزفُ من سنتين.

هيَ بخيْر، هكذا تقولُ دائمًا.

الأمورُ تختلفُ بالنسبةِ لي قليلًا عن نور، فشِلت معظمُ علاقاتي بسبب خيالاتي وليسَ رومانسيّتي، فالخيالُ يدفعُكَ لتوقّع المستحيل، ولأنّهُ مستحيل فإنّهُ لن يحدُث غالبًا، لكنّي وحدي أؤمنُ أن العالم الذي أبحثُ عنه موجودٌ في مكانٍ ما.

«خالد» كانَ جُزءًا من المستحيل الذي أردتهُ وبحثتُ عنه، رُغم ذلك لم تنجح علاقتنا، أحببتهُ كما لم أعتقد أن بإمكاني أن أُحِب، أحببتهُ ورأيتُ فيه كُل ما أردت ورُبّما أكثر.

كنتُ أعتقدُ أنهُ يقِفُ على نفس الأرض، وأنهُ يرى ما أراهُ وإن كانَ وهمًا. لم يُسعفني الوقت لأتأكّد من ذلك، لم يمنحني الوقت الكافي وافترقنا.

ختمت نور صراخها قائلةً:

ـ انتِ ليه بتعملي فيّا كده؟

لم أعطِها إجابةً فتنهّدت ثُمّ أردفت:

ـ على فكرة ممكن تتكلّمي دلوقتي.

ـ نور، أنا ما كنتش أعرف إن أنا هاتحجز في المستشفى. (قُلتها بهدوءٍ وعُدتُ إلى الصّمت)

لم تُعجبها إجابتي بالطّبع، ولم ترَ فيها الاهتمامَ المطلوب لكنّها تعلَمُ أنّي لن أتحدّث أكثرَ من ذلك. وقبل أن تُنهي المكالمة سألت على استحياء:

ـ مش هتكلّمي آدم؟

فأجبتُها باختصارٍ وحزم: «لأ»

صمتَت ثوانيَ لتُفكّرَ في كلامٍ لم تقُلهُ في النهاية، ثُمّ وعَدت بزيارةٍ قريبة وأنهت المكالمة.

وضعتُ الهاتف على الوضع الصامت ورميتُهُ وحيدًا في الدُّرج. الأخبارُ السيئةُ تنتشرُ سريعًا ولن يتوقّف هذا الهاتف اللعين عن الرنين من الآن فصاعدًا، وأنا لستُ مستعدّةً نفسيًا لاستقبال المكالمات والمواساةِ من أحد.

احتضنتُ دُبّي المحشو الأصفر، وأمسكتُ بجدارية درويش ورُحت أقرأ وأغوص:

«وكأنني قد متُّ قبل الآن،

أَعرفُ هذه الرؤيا، وأَعرفُ أَنني أَمضي إلى ما لَسْتُ أَعرفُ.

رُبَّما ما زلتُ حيًّا في مكانٍ ما، وأَعرفُ ما أُريدُ،

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ»

تكرّرت في رأسي كصدى الصوت: «وكأنني قد مِتُّ قبل الآن.. وكأنني قد مِتُّ قبل الآن»

حينها رأيتُ فراشةً كبيرةً تُحلّقُ أمامي مباشرةً، لها جناحانِ أبيضان مُتشعّبان بخطوطٍ حمراء وأرجوانيّة متقطّعة. راحت تتنقّلُ بحركةٍ انسيابيّةٍ رشيقة. حطّت على طرَفِ الجداريّة في يدي وطارت مرّةً أخرى.

كرّرتها ثلاثًا.

ورُحتُ أتابعُها وهيَ تُحلّق.

حطّت الفراشة، طارت الفراشة.

همستُ إليْها: من أينَ أتيتِ؟.. لم تعطني ردًا، فقط حطّت رحالَها على كتفي وتقافزت بخفّةٍ على خُصلات شعري إلى أن وصلت إلى أُذُني.

موسيقى، ذات الموسيقى التي سمعتُها وأنا في طريقي إلى غُرفةِ الأشعّة.

لا أعلمُ إن كانت عيني مُغمضةً أم مفتوحة في تلكَ اللحظة ولم أُفكّر طويلًا، أسمعُ الموسيقى مستمرّة، رنّاتُ كمانٍ ودقّاتُ طبولٍ خفيفة،

وأصابعُ خفيّة تعزفُ على البيانو من مكانٍ ما.

أرى مرجًا أخضر مترامي الأطراف. مزهرًا ومورقًا ومُبهجًا وحبّاتُ الندى تتلألأُ وتطيرُ كالفقاقيع تحملُها النسائم. في آخرِ المرج أرى معالم لا أتبيّنُها، أحاولُ الاقتراب والفراشة تتقافزُ حولي بذات الخفّة.

الجوُّ بارد والسُحبُ خفيفة تميلُ إلى اللونِ البنفسجيّ. والشّمسُ ساطعة، كيفَ أستطيعُ النظرَ إلى عينِ الشمس هكذا ولا تُؤلمني أشعتها رُغمَ قوّتِها؟

الفراشةُ تنسابُ في منحنياتٍ أمامي وكأنّها تدلّني على الطريق.

اتّجهتُ شمالًا أو رُبّما جنوبًا، لم أكُن أعرفُ الاتجاهات كثيرًا في هذا المكان، على جانبي الأيمن رأيتُ شجرةً مورِقةً ومزهرة وعملاقة، تتساقطُ منها إلى الأرضِ بَتلاتٌ مختلفة الألوان.

رأيتهُ هناكَ يجلسُ هادئًا مطمئنًّا في ظلّ الشجرة، بشعره الأسود المُجعّد، وبِنيته الهزيلة، وسماره الخفيف. وكانَ يرتدي القميصَ ذاته الأزرق الفاتح الذي أُحبّهُ، القميص الذي كان يرتديهِ يوم افتراقنا.

اقتربتُ رويدًا، رفعَ رأسهُ وأنا أمامهُ مباشرةً، ونظر إليّ بعينيه الدّاكنتين، وغمّازتهُ الوحيدة في الخدّ الأيمن، وعلَت وجههُ ابتسامة واسعة أخذت تتناقصُ تدريجيًا وهو يحدّقُ في عينيْ المفتوحتين على اتساعهما.

بادرتهُ بالسؤال:

ـ مشيت ليه يا خالد؟

أطرَق رأسهُ ثُمّ نطق بصعوبة:

ـ كان لازم أمشي يا عالية.

«عالـــية»

«عـــالية، انتِ صاحية؟!»

المرجُ ينهارُ ويتهاوى من حولي في لحظة، والشجرةُ المورقة تذبُل وتفنى إلى الرّماد، وأسمعُ صوتَ ارتطامٍ ثُمّ ألمٌ غريب في ظهري ورجليّ. كانَ ذلكَ صوتَ أبي.

أينَ أنا؟.. لماذا عُدتُ إلى هُنا؟

نظرتُ حولي وكأنّي أحاولُ تذكُّر شكلِ الجدران.

تابعتُ أمي وهيَ تشتكي لأبي:

ـ شُفت بتسرح ازاي؟ نفسي أعرف بتروح فين؟

كنتُ أشعُرُ أني ما زلتُ معلّقة أتأرجحُ بينَ عالمين لا أملُكُ الوصولَ لأيٍّ منهما، فركتُ عينيّ بعُنف. أينَ الفراشة؟

أبي بلُطف:

ـ انتِ كويسة يا عالية؟

هززتُ رأسي بالإجابة.

لماذا عادَ الألم؟ أمعائي تتقطّع ولا أستطيعُ تحديدَ مكان الألم.

ومتى نزلَ الليل؟ وأينَ الشّمس؟

كانت تلكَ هي المرّةُ الأولى التي أغيبُ فيها عن الواقع لأكثَر من ساعتين. أحاولُ أن أسترجعَ الذّاكرة. ماذا كُنتُ أفعل قبلَ حالةِ التيه هذه؟

كلّمتُ نور.

ثمّ.............

أينَ هاتفي؟

ـ ماما، فين موبايلي؟ حد خده؟

ـ مالك يا عالية؟ ما انتِ حاطّاه بإيدك في الدرج.

أخرجتُ الهاتفَ من الدُّرج ونظرتُ إلى كم الرسائل والمكالمات ورميْتُهُ بعصبية في الدُرجِ مرّةً أخرى.

لا أستطيعُ أن اسألَ أمي عن آخر شيء كنتُ أفعلهُ قبلَ أن أُغمض عيني، لأنّ ذلك سيزيدُ من اقتناعها أنّ ابنتها الوحيدة قد جُنّت تماماً. لذا سألتُها:

ـ ماما.. هوَ أنا نِمت قد ايه؟

ظهرَت على وجهِ أمّي علاماتُ عجبٍ ممزوجٍ بشيءٍ من الخوف وأجابت:

ـ عالية انتِ ما غمّضتيش عينك، انتِ كنتِ بتقري في الكتاب.

وظلّت ترمقُني في ريبةٍ فأشحتُ بنظري باحثةً عن الكتاب.

الجدارية.

درويش.

«وكأنني قد متُّ قبل الآن..

أعرفُ هذه الرؤيا وأعرفُ أنني أمضي إلى ما لستُ أعرف.»

الفراشة.

بيضاءُ بخطوطٍ حمراء وأرجوانية متقطّعة.

الجو بارد.

الشمسُ ساطعة.

ـ عالية، سيبي الكتاب وحاولي تنامي، الساعة ١١ وانتِ صاحية من بدري. (قالتها أمّي في قلق.)

وضعتُ الكتابَ تحت الوسادة وانزلقتُ في السرير مُحتضِنةً دُبّي الأصفر بعُنف في محاولةٍ لنسيانِ الوجع أو تجاهله.

أصواتُ الممرضات في الممرّات أمام الغُرفة.

الألم المُبرِح.

ضحكاتٌ متعالية.

انتفضتُ من جديد جالسةً على السرير وصرخت:

ـ عاوزة مسكّن، مش عارفة أنام، قولوا للدكتور إني عاوزة مسكّن.

ظلّت أمي تحاولُ مع الممرضات للوصول للطبيب المتابع. أكثرُ من ساعةٍ ونصف مرّت في محاولاتٍ لإقناع الطاقم الطبيّ بإعطائي جرعةً صغيرة من مسكّن الألم لأنام. وأنا مُتكوّرة في رُكن السرير وأئنُّ باستمرار.

نجحَت أمي في النهاية في إقناعهم. وجاءت الممرضةُ تحملُ في يدها الأنبوب الصغير الذي يحملُ الخَلاص وحقنتْه ليذوبَ في كيس المحلول ويتسرّب إلى جسدي شيئًا فشيئًا. وبعدَ الجُرعة، أذكُرُ أن آخر كلامي كان:

ـ ماما هو بابا روّح؟

ولا أذكُرُ أني سمعتُ الإجابةَ بعدها.

(٢)

استيقظتُ على صوتِ أمّي:

ـ عالية، نور جات تشوفِك ومستنياكي تصحي من بدري.

لا أعرفُ كم ساعةً قد نمتُ تحديدًا لكن يبدو أن أمّي قد ذهبت إلى المنزل وعادت في اليوم التالي. أو رُبّما لم تذهب، لا أدري حقًّا.

واجهتُ صُعوبةً في الاستيقاظ الكامل، وتقبُّل العالم من جديد، حتى دخلت نور إلى الغُرفة بابتسامتها العريضة.

كانت ترتدي سُترتها الزرقاء الطويلة وتربطُ شعرها المجعّد لأعلى، متكوّرًا في قمّة رأسها، كالقُنفُذ النائم. وتضعُ نظّارتها ذات الإطار الوردي العريض. وكان خداها الممتلئان ينبضانِ احمرارًا ممزوجًا بنقشاتٍ بُنيّةٍ متفاوتة الحجم من النّمش.

كانت كُلّها مُبعثرة كعادتها، فبدَت لي كطالبةٍ تفشلُ في إنهاء المنهج ليلة الامتحان.

تركتنا أمّي وأغلقت الباب وخرجت. فاحتضنتني نور ودمعَت عيناها. هي لا تتأثّر بسهولة، لكني أعلم جيدًا كم تحبّني هذه الفتاة.

ـ كده تقلقينا عليكي؟ (قالتها نور معاتبةً.)

لم أُجبها واكتفيتُ بابتسامةٍ غيرِ مُكتملة.

أصبح من الصّعب علي جدًا التنقّل بين حالاتي. النوم الصامت الجامد الأسود بلا أحلام، والواقع بضجيجه المزعج وواقعيته الضاغطة، وعالمي الافتراضي بكل عجائبه وجماله الخرافي الحالم. وسُكّانه الهادئين.

أصبحتُ أحتاج إلى هُدنةٍ من الصمت بين الحالة والأخرى.

أردفت نور:

ـ مالك يا عالية؟ مامتك قلقانة عليكِ، بتقول إنّك بتسرحي كتير.

لم أُعطها إجابة، ولم ألتفت إليْها، وأمسكتُ بقلمي في محاولةٍ لتجاهُل وجودها وأسئلتها القلِقة. ورُحتُ أكتبُ على ظهر الجدارية:

معركتي لا نهائية..

عليّ أن أحاربَ أكثر ما دامَ في وسعي..

معركتي لا نهائية..

تبدأُ هنا وتنتهي في الجانب الآخر من الكون..

وليسَ للكونِ نهاية..

وليس للكونِ جانبٌ آخر..

لذا فمعركتي لا نهائية..

وأنا أحاربُ وحدي..

وحدي والفراشة..

الفراشة..

بيضاء بخطوط حمراء وأرجوانية متقطّعة..

ـ عالية، رُدّي عليّ أنا باكلّمك، احكيلي مالك؟ وإيه اللي بتكتبيه ده؟ (قالتها نور في توتّر وهي تسحبُ الكتاب من يدي بعُنف)

نظرتُ بلا اكتراثٍ إليْها وإلى نظرة القلق البادية على وجهها، وتكوّرتُ في السرير كالجنين.

ـ عالية.. ما تهربيش، كلّميني.. مالك؟ (ألحّت نور)

اعتدلتُ فوقَ السّرير من جديد محاولةً استجماع عقلي الظاهر وتجنيب أفكاري الافتراضية وتلجيم جموح عقلي الموازي، ونظرتُ إليها بابتسامةٍ هادئة:

ـ أنا باشوف حاجات غريبة يا نور، ومش أحلام، أنا بابقى صاحية، وده مش مضايقني، بس مضايق كل الناس.

انهالت عليّ نور بالأسئلة التي لم أُجب عن أيّها مما زادَ من قلقها.

كُنتُ أراقبُ الفراشة المتقافزة حولي وحول نور وأنا أتحاشى النظر إلى نور التي كانت تنتظرُ إجاباتٍ مُقنعة على أسئلتها المتوالية.

شعرتُ بالألم يعتصرني فجأة، ورُحتُ أتلوّى ونور لا تدري ما تفعل. أظن أنها اعتقدت في البداية أنها محاولةٌ أخرى للهروب من الأسئلة، حتى نبّهها صراخي أن الأمر ليس كذلك. لماذا يختفي الألمُ تمامًا بظهور الفراشة. ولماذا تختفي الفراشة بظهور الألم؟

صرختُ في نور أن تنادي الطبيب، فخرجت مسرعة ومرتاعةً إلى أمّي التي فُزعَت هي الأخرى بدورها.

تسارعت الخطواتُ بعدها إلى غُرفتي وخلال دقائق كُنتُ تحت جهاز الأشعة من جديد. أعادوني إلى غُرفتي بعدَ استكمال الفحوصات، وحقَن الطبيبُ جرعةً خفيفة من المسكّن في وريدي.

ـ لأ مش هينفع نعملّها العملية دلوقتي، هنكمّل بالأدوية زي ما احنا وندعي الجسم يستجيب، العملية هتبقى خطر عليها.

(كان هذا هو الرأي النهائي لطبيبي المتابع والذي سمعتهُ بالجُزء الباقي من وعيي.)

أثرُ المسكّن كان ضعيفًا جدًا ولم يقدر على مُجابهة هجمة الألم. لكن أثر الفراشةِ كان قويًّا وفعّالًا. صارت الفراشةُ تحومُ حولي كثيرًا، ولا تترُك لي فرصةً للاندماج مع الواقع، شيء بداخلي يهمسُ بي أني على شفا معركةٍ ما.

معركة لا أعرفُ من هُم أطرافها. لكنّي أعلمُ أن لي دورًا فيها. دورَ المحارب أم المدافع أم الغنيمة؟ معركةٌ لن ينتصرَ فيها أحد، سيخسرُ الجميع.

نظرتُ في الساعةِ التي كانت تُشيرُ إلى الثالثة عصرًا. صرتُ أحرصُ على النّظر إلى الساعة كلّما مرّت الفراشة من أمامي.

هذه المرّة لم تأخُذني الفراشةُ إلى المرج الأخضر. لم تكُن الشمسُ ساطعة ولم تكن السُحُب خفيفة وبنفسجية، كانت السماءُ مُرعِبة، تكسوها غيومٌ برتقاليّة، وتتساقطُ منها شُهبٌ بألوانٍ قاتمة.

أسمع صراخًا آتيًا من بعيد. إنّها القلعة التي كنت أراها دائمًا ولا أتبيّنُ ملامحها. لم أصِل قط إليْها في أيٍّ من المرّات السابقة، كنتُ أكتفي بالجلوس في المرج الأخضر المترامي.

الآن، أنا في أعلى أبراج القلعة. أشاهدُ الصورة كاملةً من الأعلى، الأرضُ كرويّة وكأني أشاهدها من الفضاء الخارجيّ، لكنّها فقط أقرب وأكبر وأوضح.

ومن جديد رأيتُه، «خالد» كانَ يقفُ إلى جواري مُباشرةً، يشاهدُ ما أشاهده، وتعلو وجهه الابتسامة الواسعة ذاتها، وهو يُراقبُ المعركة الدائرة بين طرفين في الأسفل. الكثيرُ من القتل لكنّي لا أرى دماءً على الإطلاق، فقط ضربات السيوف تُسقطُهُم ضحايا ولا دماء تسيل.

رُحتُ أصرخُ صُراخًا لا صوت له وأنا أرى أناسًا أعرفهُم بين المحاربين.

أبي، آدم، نور، أمي.. وآخرين.

ماذا يفعلونَ هُنا؟

نظرتُ إلى خالد الذي بدا هادئًا للغاية وغير متأثّرٍ بما يحدُث على عكس حالتي أنا.

كان الطرفُ الآخر من المعركة أشياء تشبه الأشباح، تتحرّكُ بسرعةٍ وخفّة.

آدم يسقُطُ بضربةٍ قاضيةٍ وهو يحاولُ مقاومةَ أحد الخيالات الخالية من الملامح. أفزعني سُقوطُه وشعرتُ بوخزةٍ مؤلمةٍ في خافقي، وكانت هذه هي المرّةَ الأولى التي أشعرُ فيها بأي نوعٍ من الألم في العالم الافتراضي.

حاولتُ بصعوبةٍ سحبَ نفسي إلى الواقع من جديد، حاولتُ القفز من أعلى البرج كي أرتطمَ بالأرض وأستفيق ولم أستطع. شيء ما منعني من القفز.

وخالد ينظرُ إلي مُستغربًا فزعي وانفعالي كما أستغربُ أنا هدوءهُ المزعج.

كانت تلكَ هي المرةَ الأولى التي تمنيتُ فيها أن تُسقطني أمي من فوق أبراجِ مخيّلتي. لماذا تأخّرت هذه المرّة؟ لا أريدُ مُشاهدة المزيد، أغمضتُ عيني وأغلقتُ أذُني بكلتا اليدين، وأنا أصرُخ مناديةً باسم آدم.

«عالية.. عالية»

كانَ ذلكَ صوتًا أعرفُه. نبرةً محبّبة افتقدْتُها. حالة التأرجُح بين العالمين منعتني من تمييز الصوت أو جلبهِ من نواحي الذاكرة، حتى شعرتُ أخيرًا بالارتطامِ المؤلم. ألمُ المرض يمتزجُ تدريجيًا بألمِ الارتطامِ الوهمي كامتزاجِ الحبر في الماء حتى يصيرا واحدًا، وجعًا دمويًا أحمرَ اللون.

ـ آدم!!

(قُلتُها وأنا أنظرُ إليْهِ باندهاش وكأنّي أستغربُ أنهُ لم يمُت.)

كان واقفًا أمام سريري، جميلًا كما اعتدتُهُ دائمًا. بطولهِ الفارع وشعره الكستنائي الدّاكن، وابتسامته الودودةِ الناعمة، ينظرُ إليّ بعيونه اللوزيّةِ الحزينة. أو التي صارت حزينةً مؤخرًا.

كانَ يرتدي جاكيتًا خريفيًا أسودَ أذكُر أننا اشتريناهُ سويًّا في العام الماضي، حينما كانَ كُل شيءٍ واضحًا، وقبلَ أن يكسو كلينا الوجع.

أذكُرُ أنهُ كانَ يومًا غائمًا، لكنها كانت تلكَ الغيوم الخاوية، التي تأتي بظلالها دون أمطارها، تحجبُ الشمسَ لساعاتٍ أو حتى أيامٍ ثمّ ترحلُ في صمت وكأنها لم تكُن هنا، لا أثرَ على الأرض أو الشجر، ولا في النفوس.

وأنني كنتُ حزينةً لسببٍ لا أذكُره، وفشلت كُل محاولاتِ أصدقائي في إقناعي بمغادرةِ السرير.

حتى اتصل آدم وأخبرني أنهُ يُريدني أن أقابلهُ في أمرٍ مهم، مما دفعني لتركِ سريري متثاقلةً. وأذكُرُ أنني كنتُ أرتدي ملابسَ غير مُتناسقة

في ذاكَ اليوم، فأنا هكذا دائمًا، مزاجي قد لا يظهرُ على وجهي لكنهُ بالتأكيدِ يظهرُ على ثيابي.

قابلتهُ لأكتشفَ خلال دقائق معدودة، أنه لا يوجد أيُّ أمورٍ مهمة وأنه تذرّع بذلك فقط لإقناعي بتركِ وسائدي ومواجهة العالم.

وقبلَ أن أثورَ في وجهه غاضبة، طلب مني أن يستغلّ حضوري في مساعدته لانتقاءِ بعض الثياب.

ذاكَ الجاكيت الأسود تحديدًا لم يكُن يُعجبهُ على الإطلاق، وكانَ مُصرًّا أن حالتي المزاجية تؤثّرُ على اختياراتي، لكنّي تمسّكتُ برأيي حتى تنازل واشتراهُ على مضض.

آدم الذي ربطتني بهِ قصّةٌ دراميّة لم تستمر طويلًا، وانتهت بافتراقٍ حزين لأنّهُ لم يتحمّل غموضي الزّائد وأعراض انفصالي التي كانت خفيفةً نسبيًا وقتها لكنّها كانت تؤلمهُ وتقصمُ ظهرهُ حيرةً.

وحديثي عن خالد من آنٍ إلى آخر والذي كانَ يُثيرُ غضبه، لكنّهُ كان يحتمل، واحتملَ طويلًا، احتملَ منّي كُل شيءٍ وأي شيء، وحاولَ بكُل ما استطاع التعامل مع آثارِ الحادث عليْ، وآثار افتراقي عن خالد.

كانَ بجانبي طول الوقت، رُغم ما سبّبهُ له ذلك من تعبٍ وألم. لكنّه ظلّ موجودًا. وكُنتُ أنا غامضة، وذاكَ هو الشيء الوحيد الذي لم يستطع هو التعامل معه أو احتماله، ورفضتُ أنا إيضاح موقفي، وآثرتُ الابتعاد حفاظًا على ما تبقّى بيننا من صِدق.

هل كان سيصدّقني لو أخبرتهُ بكُل ما يحدث؟

السؤال الذي أسألُهُ أمام المرآةِ كُل صباح منذُ ٤ أَشهُرٍ مرّت على افتراقي عنه.

آدم الذي لم أنجذب لغيْره من بعد الحادث، كانَ فارسًا مثاليًا، قويًا متى استُدعيَت القوّة، عطوفًا حنونًا متى وجَب اللّينُ والرّقة، موجودًا دائمًا، لم يخذُلني ولو مرّة وخذلتهُ مرارًا.

كان خياري الأوّل وملاذي الدائم في شتّى المواقف، قريبًا من الرّوحِ حدّ الامتزاج، هادئًا كالنسائم أمام عواصف غضبي إلى أن أهدأ، ثائرًا كالموجِ إذا أحسّ بخطرِ فقداني، كانَ ينزلُ على حُزني المتكرّر بردًا وسلامًا، محبًا حدّ الجنون، عاقلًا حدّ الحكمة.

آدم كانَ.. كانَ كُل شيء.

لكنّهُ كانَ يشبهُ صديقتي نور في واقعيته وتمسّكهِ بالملموس. فلم أستطع إخبارهُ قط بمشكلتي. فضّلتُ إخفاءها. كانَ الأمرُ في البدايةِ خوفًا على علاقتنا ولأنني لن أحتملَ افتراقًا آخر بعد خالد.

ثُمّ تحوّل إلى خوفٍ على عالمي الافتراضي وتمسّكٍ به لاعتقادي أن آدم كان سيفعلُ كل ما بوسعه لإعادتي إلى الواقع، إلى واقعِه، إلى عالمِه هو، وإلى حيثُ يسكُنُ هو، لأنّهُ لم يكُن ليقبلَ أن أكون مجزّأةً بين عالمين أحدهُما لا يستطيعُ هو إليهِ سبيلًا.

تركني آدم بعدما فشلت كُل محاولاته في الوصولِ إلى قلبِ المشكلة وأساسها. واعتقدَ أنّي توقفتُ عن حُبّه أو أنّ شيئًا ما تغيّر في داخلي.

لم تتغيّر مشاعري تجاهه، لكنّ شيئًا أكبر من ذلك كان قد تغيّر. عالمي بأكمله.

سألني آدم مرارًا إن كُنتُ قد تخطيتُ أزمة فِراق خالد أم لا، سألني إن كانَ ما زالَ يشغلُ تفكيري كما كان وأجبتهُ بالنّفي القاطع.

وقطعتُ عهودًا ووعودًا لآدم، لم أنكُثها وأتراجع عنها إلا بعدَ أن صارَ خالد يظهرُ باستمرارٍ في عوالمي الخاصّة، حينَ صارَ حضورهُ قويًا مُقابل الخفوت المستمر لحضورِ آدم.

- إزيّك يا عالية؟ (قالها بذات النبرةِ الهادئةِ الخاطفة.)

أجبتُهُ بصوتٍ مهزوز وأنا أحاولُ استجماع تركيزي، ورأسي يدورُ حائرًا بين عالم الذّكرى وعالم الواقع ويتطفّل عليهم عالمي الافتراضي. وعيني تتجّهُ إلى كُل مكانٍ وأي مكانٍ لتفادي لقاءِ عينيْه:

- الحمدُ لله.. الدكاترة بيقولوا إنّي باتحسّن.

عقلي لا يكُف عن الأسئلة ويُفقِدُني التركيز كاملًا. من الذي قَتل آدم في عالمي الافتراضي؟.. ولماذا قُتِل؟

كُنتُ أعلمُ أن ما كان بيني وبين آدم ذَهَب إلى غيرِ رجعة، شيء ما قد انكسر ولم يعُد قابلًا للإصلاح، أعلمُ أنني جرحتُ كرامتهُ وحُبّه بأشكالٍ مُختلفة. لكن كُل ذلك لم يكُن قط عن قصدٍ ونيّة.

حاولتُ مقاومةَ سحره الذي ما زالَ قادرًا على إبهاري وكأنّها المرةُ الأولى.

حاولتُ مقاومة الرّغبة المُلحّة في التربيت على كتفه ومحاولةِ تخفيف أحزانه التي كنتُ أنا سببها المباشر.

قطع هو محاولاتي وصراعي الداخلي قائلًا:

ـ أنا جيت أتطمّن عليكِ وأشوف لو عاوزة حاجة، انتِ طبعًا عارفة إني موجود في أي وقت وفي أي حاجة تحتاجيها يا عالية.

(قالها وكأنّهُ كان يتعمّدُ تأنيبَ ضميري، وهزّ تماسُكي.)

ـ شكرًا يا آدم، ربّنا يخلّيك.

أجبتهُ ببرودٍ موجِع، محاولةً قطعَ ما تبقّى من حبالِ الأملِ المهترئةِ لدى كلينا بسكينٍ باردة.

أعلمُ أن حبالَ آماله لن تنقطع بسهولة، قالها لي مرارًا: «شيء خفيٌّ يربطُني بكِ، شيء لا أستطيعُ تفسيره ينبذُ من رأسي كل فكرةٍ للحياةِ بدونك»

وقُلتها لهُ تكرارًا: «بقائي على قيدِ الحياةِ هو ما يربطُني بك، ما ظلّ القيدُ مربوطًا ربَطني بكَ أكثر، وإن انفَك عنّي قيدُ الحياةِ افترقنا.»

صدَقَ هوَ، وكذبتُ أنا.

فبقيتُ على قيدِ الحياةِ وانفَكَّ قيدي عنه، وما زال شيءٌ ما خفيٌّ يربطه بي، قد يكونُ: صِدقه.

سادَ الصمتُ بيننا عدّةَ دقائق إلى أن دخلت نور سائلةً:

ـ فُوقتي شويّة؟

ـ أنا فايقة أهو يا نور وزي الفل، تعالوا احكولي بقى أخبار الكليّة ايه من غيري؟ (رددتُ في اهتمامٍ مُصطنع ووهَنٍ حقيقيٍّ)

انطلقت نور تحكي كالراديو بلا توقّف، نضحكُ مرّة، نبتسمُ أخرى، وآدم صامتٌ كليالي الصّحراء الباردة. تواجهُ عيناي عينيهِ الحزينتيْن لجزءٍ من الثانية قبل أن ألتفتَ إلى نور من جديد، وهو يُثبّتُ نظرهُ نحوي وكأنّهُ يحكي لي قصصًا وأساطير أرفضُ متعمدةً أن أقرأها في عينيه.

استمرّ حديثُ نور ما يقاربُ نصفَ السّاعة. مُبهِجةٌ نور ولديها القُدرةُ على ربطي بالواقع لأطول فترةٍ ممكنةٍ بأحاديثها.

وصل عددٌ من أصدقائي من المدرسة والجامعة، وأصدقاء من مشاريع مختلفة أشاركُ فيها.

استمرَّ الوضعُ بهذه الصورة، بشرٌ يجيئون وبشرٌ يذهبون، وآدم ثابتٌ في مكانه لا يُحرّكُ ساكنًا، وعيناه مُثبّتةٌ نحوي. يُشاركُ في الحديث بكلمةٍ أو ابتسامةٍ ناقصة من آنٍ إلى آخر ثم يعودُ إلى براثن صمته من جديد.

حتى دقّت الساعة الثامنة مساءً حينَ دخلت إحدى الممرضات لتُعلِنَ موعدَ انتهاءِ مدّة الزيارة.

هنا استعدّت نور للذهاب وهي تتقافزُ كالأرنب كعادتها.

نظَرَ آدم إليّ نظرةً أخيرة وهو يمدُّ يَمينهُ إليّ، وقالَ مودّعًا وكأنّهُ وداعٌ أخير:

ـ سلام يا عالية، تقومي بالسلامة.

لم أستطع الرّد، شيء ما منعني من أن أقسو عليْهِ أكثر. فكانَ صمتي هو الحَلَّ الأمثل.

شرَدتُ في عينيه للحظاتٍ قبلَ أن أشعُر بأصابعهِ تنسحبُ من بينِ يدي في هدوءٍ قبلَ أن يُغادر ويختفي ليُصيبَ الصَمتُ غرفتي، والوجعُ أوردتي.

ذهبَ الجميع، وبقيتُ أنا وفراشاتي ووجَعي والجدران، وصورةُ عينيْ آدم الصامتتين لا تُفارقُ مُخيّلتي. كانَ كُلّ شيءٍ ينبضُ بالألمِ الآن. لا حلَّ غير النوم، النوم الطويل الأسود.

(٣)

العاشرة صباحًا.

لماذا لا يظهرُ عالمي الافتراضي في أحلامي أبداً؟ أنا لا أحلم، عقلي الباطن يعمل بكامل قوّته وأنا متيقّظة، ثمّ ينامُ تمامًا حينَ يأتي دورهُ الحقيقي في الأحلام.

أتلفّتُ حولي، أين أمي؟ لماذا ليست هنا؟

لأوّل مرةٍ ألاحظُ السيدة الهادئة القابعةَ في السرير المجاور لي. نظرتُ إليها فابتسمت فرددتُ الابتسامةَ بأدب ورُحت أبحث عن كتبي وهيَ تتبعُني بنظراتٍ متفحّصة.

انهمكتُ في البحثِ وسطَ الكُتُب فوجدتُها فجأة تقفُ أمامي مُستندةً إلى حامل المحاليل ذي العجلات. لمحتُ ظلّها أمامي فرفعتُ رأسي ببطءٍ ونظرتُ إليها في تعجُّب.

ـ ارجعيلهُم يا عالية، ارجعيلهم عشان انتِ محتاجاهُم.

(قالتها بثقةٍ غريبة وهي تجذبُ الكُرسي وتجلسُ أمامَ سريري وعيناها لا تُفارقان سوادَ عينيْ.)

لم أفهم ما تقصده، ولم أحاول التفكير فيه.

لم يتوقّف حديثُها عند هذا الحد. أخبرتني أنها قبلَ مرضها الذي ألزمها الفراش والمستشفيات، كانت تعملُ كمستشارة نفسية تحديدًا للـ«عائدينَ من الفقد»، لم أفهم المصطلح الذي كرّرتهُ عدّة مرّاتٍ خلال حديثها الطويل الذي ألزمني الصّمت والإنصات.

كلمة الفقد تشُدّ انتباهي دائمًا، رُبّما لأنني لم أُفلِح قط في التعامُل معه، رُبّما لأنني منذُ خسارتي الأخيرة اعتقدتُ أنّي قد لمستُ سقف الخسارة قبلَ أن أسقُط مُجدّدًا.

رُبّما لأنني لم أنجح قط في فهم سيكولوجية الفقد.

أخبرتني أنّ العائدينَ من الفَقْد، هم أولئك الذين ضربتهُم الحياة بكُل سِياط الخسارة، بخساراتٍ صغيرة، وأخرى أكبر، وأخرى كارثيّة وموجعة ولا تقبلُ العَوَض، وتوالت عليهم الخيباتُ بأنواعها، وأعرض عن وجوههم الأمل مرارًا وتكرارًا.

وحينَ أدركَهُم اليأسُ من كُل جانب، أدركتهُم الحياةُ أيضًا بجائزةٍ مُتأخّرةٍ ما، ونفخةٍ في الرُّوحِ على غيْرِ موْعِد.

فصارَ أمامهُم الخيار، إما أن يعودوا بطاقةٍ من التقديس، قد تفوقُ احتمالَ الأرض، تقديسٌ لكُل ما عادَ ومن عادَ بعد الفقد، تقديسٌ

لأرواحهم وحياتهم. أو أن يعودوا بكُل ما في الكوْنِ من التبلُّد واللااكتراث والإعراضِ عن الحياة.

أخبرتني أن فقدنا لأشياءٍ أو أشخاصٍ أو حتى مشاعرَ كُنّا نعتقدُ استحالة الحياة من دونها، يؤدّي بنا أحيانًا إلى فقد ذواتنا عن غيرِ قصد.

لم أرغَب في الرّد أو التعليقِ على كلامها، كُنت أشعرُ أنها غريبة، وكُل ما أردتهُ في هذه اللحظة هو أن تتلاشى إلى العالم الذي أتت منه، فعالمي لا يحتملُ المزيدَ من الغرباء.

ختمت حديثها قائلةً:

- عالية أنا هاخرُج من المستشفى النهارده، حبّيت أقولّك الكلام ده قبل ما أمشي، وده رقم تليفوني.

(قالتها وهي تضعُ بينَ كُتبي بطاقةً صغيرةً تحملُ اسمها ورقم هاتفها وبياناتٍ أخرى.)

لم أُبدِ اهتمامًا وأومأتُ برأسي بالموافقة، وانتظرتُها حتى ذهبت من حيثُ أتت.

لم أحاول النّظر إلى البطاقة ولا حتى لمعرفة الاسم وعُدتُ أُفَتّشُ بينَ الكتُبِ باحثةً عن شيءٍ لا أعرفهُ كعادتي.

«لم أجد سببًا لأسأل من هو الشخص الغريب،

أين عاش وكيف مات؟

فإنّ أسباب الوفاة كثيرة من بينها وجع الحياة»

الوفاة..

أسبابها..

وجع الحياة..

الفراشة..

لقطاتٌ سريعة، موسيقى غير منضبطة الألحان، تعدّل نفسها بنفسها، الألم يتلاشى، أين أمي؟

المرجُ الأخضر المترامي.

المعركةُ من جديد، هذه المرة اشتدّت وطأةُ الحرب، وازدادت الأعداد، وأنا في أعلى بُرجي أصرخُ بهيستيريا. بحثتُ بنظري عن آدم وسطَ الجموع المتقاتلة فلم أجِد لهُ أثرًا.

أحاولُ إيقاف المعركة بلا فائدة، توقّفتُ عن الصراخ فجأة حينَ لاحظتُ أنني لا أملكُ صوتًا، وأن أحدًا لن يسمعني، إذ إنني أصرخُ من أعماقي ولا يخرجُ سوى الصمت!

عُدتُ للمحاولة مجددًا حتى كادت أنفاسي تنقطع، وشعرتُ بأحشائي تتمزّق!

نظرتُ نحوَ المرج من جديد، فإذا بكُل شيءٍ قد تغيّر، اختفت الأشباحُ المُحاربة، واختفى كُل من كان موجودًا في ساحة المعركة، وبقيَت سيّدةٌ مكتسيةٌ بالسّواد من رأسها حتى أخمص قدميها.

لم أستطع تبيُّنَ ملامحها. كانت تسيرُ ببُطءٍ في حلقاتٍ مُفرغةٍ في المرج، وتعودُ إلى نفس النُّقطة التي بدأت منها.

ثُمّ توقّفت تحت نافذتي مُباشرةً وأشارَت إليّ بيدها وتمتمت بكلماتٍ لم أستطع تمييزها في البداية، ثُمّ كرّرَتها ثلاثًا فأدركتُها في المرّة الثالثة:

«ارجعيلهم يا عالية، ارجعيلهم عشان انتِ محتاجاهُم» حاولتُ أن أتذكّر، أينَ ومتى سمعتُ هذه العبارة من قبل، لكنّ عقلي لم يُسعفني لإيجادِ إجابة.

سمعتُ وقع أقدامٍ من خلفي فنظرتُ إلى الخلف فإذا بخالد بهدوئه المُريب ونظرته الزُجاجية يمُدُّ يدهُ إليّ. اقتربتُ منهُ خطوتين قبلَ أن تُلامسَ أصابعي أطرافَ أصابعه الباردة.

ثُمّ أسمع صوتًا قادمًا من بعيد: «عالية.. عالية»

الأصواتُ تتداخل مع الموسيقى وأصوات المعركة تعلو من جديد. وقع أقدامٍ مهرولة. ثمّ.. . آه..

فتحتُ عيني بصعوبةٍ وكانت الرؤيةُ ضبابيّةً للغاية، لكنّي استطعتُ تميزَ عددٍ من الأطباء والممرضين ملتفّين حول سريري، وأحدهم يغرز إبرة تقطُرُ سائلًا ما في وريدي.

ثُمّ ساد صمتٌ تام.

أفقتُ بعدها مجددًا لأجدَ أمي والطبيب بجوار سريري.

صرخت أمّي مذعورة:

ـ انتِ بتعملي كده ليه يا عالية؟

أتبعَها الطبيبُ في قلق:

ـ عالية أنا عاوزك تخرجي تتمشّي في الممرات شوية، تنزلي الجنينة تحت، تزوري الناس اللي معاكِ في الدور هنا، انتِ صحّتك بتتحسّن وده هيساعدك كتير تخفّي.

ثمّ انهال علي بأسئلة أظن أن الهدف منها كان التأكد من أنني لست مجنونة، أو أنّ ذاكرتي ما زالت تعملُ جيدًا.

وقضيت عددًا من الدقائق أو السّاعاتِ بعدها تحت أجهزة الأشعة في محاولةٍ للتأكّد من عدم إصابة جزء من دماغي بتلفٍ ما، أظن أن الأطباء اعتقدوا أن ما أُصاب به هو نوع من نوبات الصرع أو الذّهان أو غيره.

لم يجدوا ضالّتهم في النهاية فأعادوني إلى غرفتي حيث أمّي التي تضع يدها على خدّها وتندبُ حظّها العاثر أن رزقها الله بابنةٍ مريضة ومجنونة في آنٍ واحد.

جلستُ على طرفِ السرير وكان أول ما لاحظتهُ اختفاء كتبي جميعها، لم يبقَ منها شيء.

نظرتُ إلى أمي وقلت بعصبية:

ـ فين الكتب؟

ـ باباكي أخدها البيت.

ـ ليه؟ ليه أخدها؟

ـ عالية انتِ ليه مش فاهمة انتِ بتعملي فينا إيه، مش كفاية إنك عيانة ومحجوزة في المستشفى.

وانهالت علي بأسئلةٍ لم تنتظر مني إجابة عنها. أنا تعِبتُ من الأسئلة وهُم جميعًا تعبوا من عدم وجود إجابات.

أصدرت أمّي بعدها عدّة قرارات لم تستدعِ موافقتي عليها. كحرماني من الكتب حتى أتوقّف عن عادتي السيئة في الرحيل عنهم كل حين، وأني سأخرج من المستشفى إلى العيادة النفسية، وبضعَ قراراتٍ أخرى لم أهتم أن أسمعها.

حاولت أمي أن تخفّف من وطأة حديثها بأن تحاول إقناعي أنها تتفهّم أنّ أفعالي تلك كلها بدافع الاكتئاب الذي تسببه لي المستشفى وجدرانها وبياضها المقيت، متجاهلةً حقيقة أنني على هذا الحال منذُ ما يُقاربُ السّتة أشهُر، وأن الوضعَ ازداد حدّة فقط بسبب بقائي في سريرٍ مُستطيلٍ لا مخرج منه.

قلتُ بعصبية:

ـ أنا مش مكتئبة، بطّلوا تقولولي كده.

ثُمّ أخبرتها أني أريد النوم فهو ملاذي الوحيد من العالمين معًا الآن. ورفضَت هي قراري بشدّة معلنةً أني سأذهبُ لزيارة شخصٍ ما لا أعرفه كما قال الطبيب. قالت أنّ هناكَ مرضى في سنّي يسكنون غُرفًا في هذا الدوْر.

أنا لا أُطيقُ الحديث مع من أعرفهم، مع أصدقائي أو أهلي، ولا أُطيقُ رؤية أحد، فكيفَ أصيرُ مُطالَبَةً بزيارةِ أُناسٍ لا أعرفهم وأراهُم للمرّة الأولى.

حاولتُ التملُّص وباءت محاولتي بالفشل التام.

كانت الساعة تطعنُ السادسةَ مساء.

وقرّرت أمي أنني سأقومُ بذلكَ وحدي، فتركتني وخرجت إلى الكافيتيريا.

كنتُ أعلم أنني إن لم أفعل ذلك وحدي فسترافقني لإجباري، لذا قررتُ أن أنتهي من المهمّة سريعًا لأعودَ إلى غرفتي بأسرع وقتٍ ممكن.

خرجتُ من باب الغُرفة ولفت نظري أنّ السيّدة التي كانت تقطُن السرير المجاور قد اختفت واختفت أشياؤها جميعًا، عرفت أنّها غادرت كما أخبرتني، وصارت الغرفةُ لي مؤقتًا إلى أن يظهر مريضٌ آخر.

ترددت كلماتها في رأسي بلا سببٍ واضح: «ارجعيلهم يا عالية، ارجعيلهم عشان انتِ محتاجاهم» قبلَ أن أطرُد كُل الأفكار من رأسي وأتّجه مباشرةً نحو الباب.

أخذتُ عدّة جولاتٍ في ممرّاتِ الدور كاملًا وأنا أُلقي بنظراتٍ عابرةٍ غيرِ مُبالية على أرقام الغُرَف، وعبرَ النوافذ المربّعة الصغيرة للأبواب، وأوزّعُ ابتساماتٍ مُصطنعةٍ على الأطباء والممرضين والزوّار في الممرات.

حتى توقّفتُ أخيرًا أمام أحد الأبواب، كُتِب في أعلى الباب رقمُ الغرفة ١٣٦.

لا أعرفُ ما الذي دفعني للوقوفِ أمام هذه الغُرفة بالذات، لكنّي قررتُ فجأة أن أزور قاطِنها. طرقتُ عدّة طرقاتٍ على الباب إلى أن أتاني الصوت:

- اتفضّل.

كانَ شابًّا في مُقتبل العُمر. أول ما لاحظته بعد ألوان الغرفة هو ابتسامتُه الهادئة المُطمئِنة. كانَ يبدو وكأن المرض أنهك كُل عضلاتِ جسده وأكَل من بِنيتِهِ أجزاءً، ووجهه رُغم الابتسامةِ كان ينطقُ وجعًا.

الغرفة كانت مليئةً ببالوناتٍ ملوّنة وأزهارٍ هنا وهناك، وعلب حلوى، وأمامهُ جهاز «بلاي ستيشن» موصول إلى شاشة موضوعة على رفٍّ مُرتفع.

ابتسم الفتى مُرحّبًا:

- اتفضّلي، ماتخافيش.

رددتُ الابتسامةَ على استحياء وخطوتُ بضعَ خُطواتٍ تجاه الكرسي الكائن على جانب السرير وجلست في هدوء.

بعدَ أن ألقى نظرةً سريعةً على ملابس المستشفى التي أرتديها، بادرَ هو بتعريفي بنفسه دونَ أن يسأل عن سبب مجيئي إلى غُرفته:

ـ أنا عبد الرحمن، كنت بادرس هندسة في آخر سنة، بس أجّلت السنة دي بسبب مرضي، أحسن، أهو الواحد يرتاح من المذاكرة شوية. أنا في المستشفى بقالي شهر ونُص، ما بين هنا والعناية المركّزة.

أجبتهُ صمتًا مع إيماءةٍ غيرِ مُعبّرة.

ـ انتِ خايفة ليه؟ اتكلّمي.

لم أكُن خائفة، كنت فقط أفكّر، ماذا سأقول له؟ اسمي عالية ويظنُّ الجميع أني فقدتُ عقلي وأني أرى كائنات غير حقيقية وأنسج عوالم غير ملموسة! وأني يائسة ومكتئبة لأني في المستشفى منذ يومين فقط وهو القابع هنا منذ شهرٍ ونصف ومع ذلك فابتسامته لا تفارقه، وأنني حضرتُ لزيارته بالإكراه لإرضاء أمي وطبيبي المتابع، فقط ليتأكّدوا أنني لستُ مجنونة وأنني لم أفقد قُدرتي على التواصل مع العالم الخارجي!

الفراشة، بأجنحةٍ بيضاء وخطوط حمراء وأرجوانية، تتقافزُ لتُشاغلني من أمام النافذة المفتوحة.

لماذا أتت الآن؟ لا أريدُ تركَ الواقع الآن..

أشحتُ بنظري عنها ونظرتُ إلى عيني عبد الرحمن مباشرةً.

وقُلت بارتباك:

ـ عالية، اسمي عالية، أنا هنا من يومين، أو تلاتة، مش فاكرة.

ابتسم مقدّرًا ارتباكي وأردف:

ـ تعرفي تلعبي بلاي ستيشن؟

ـ آه.

قلتُ بثقة بعد أن زال ارتباكي قليلًا مع اختفاءِ الفراشة.

لا أذكُرُ كم من الوقتِ قضيناهُ بين ألعاب البلاي ستيشن، لكن على الأقل فُقداني للإحساس بالوقت هذه المرّة لم يكُن يُزعجُ أمي، فعلى الأقل هي تضمنُ أني هنا معهم وبينهم وفي عالمهم وأنفّذُ ما يطلبونه..

غادرتُ غُرفةَ «عبد الرحمن» بعد الزيارةِ الطويلة، مودّعةً وواعدةً بزيارةٍ أخرى قريبة. ونظرتُ إليهِ وابتسمتُ ابتسامةً خافتة خرجتُ بعدها من الغرفةِ بعدَ انتهاء مهمّتي. وعُدتُ إلى غُرفتي حيثُ الصمتُ من جديد.

لا كُتُب ولا بشَر، ليسَ سوى الحوائط التي أصبحتُ أشعرُ أنها تضيقُ بي وتُطبقُ عليّ حتى تكادُ تخنقني.

«والعرش يصبح سجنًا جديدًا، وأنت مكانك،

قد يتبدّلُ رسمك واسمك.

لكنّ جوهرك الفرد لا يتحوّل.

الصّمتُ وشمُك. والصّمت وسْمُكَ

والصمت ـ حيث التفَت ـ يرينُ ويسمُك.

والصّمتُ بينَ خيوطِ يديْك المُصبَغتين المشبكتين،

يلفُّ الفراشةَ، والعَنكبوت.»

رُحتُ أردّد الأبيات من ذاكرتي وأداعبُ خصلات شعري الطويل في انتظار الرحيل إلى عالمي. لماذا لم أرحل إلى هناك حتى الآن؟

يرنُّ جرس الهاتف مرارًا وأنا أتجاهله عمدًا، في المرّة الثالثة أخرجت الهاتف من الدُّرج وهو يئن والشاشة تُضيءُ أمامي بكُلّ السّحر: «آدم»

قرأتُ الاسم مرارًا وكأنّي أحاول حفظه قبل أن أضغط الزر الأخضر لأُسمِعَ آدم صمتي المُطبق..

-لي لي، عاملة إيه دلوقتي؟ (قالها بذات النبرة الصّافية.)

لي لي؟! لقد توقّف آدم عن مناداتي بهذا الاسم منذُ أشهُر.

أسمعتُهُ المزيدَ من صمت القبور على أي حال.

كرّر هو:

-لي لي انتِ سامعاني؟ قوليلي عاملة إيه دلوقتي؟

- كويسة.. أنا كويسة. (نطقتُ أخيرًا.)

- طب انتِ شكلك مش قادرة تتكلّمي، أنا جبتلك كتاب جديد وهاجي أجيبهولك النهاردة.

رددتُ شاكرةً باقتضاب، فأنهى المكالمةَ على عجَل.

آدم كان قد أخبرني بعد آخر زيارة أنهُ لن يحاول رؤيتي مجددًا وأنه سيطمئن على أخباري من «نور». ما الذي حدث ولمَ لم أسأله عن تغيُّر رأيه فجأة؟

آدم لا يقوى على الابتعاد الكامل على أي حال. لذا لم أتوقّف طويلًا عند تساؤلاتي حولَ عودته.

أنزلتُ الهاتف ووضعته أمامي وأنا أنظرُ إليه، وكأنّي أنتظر منه أن يرُد على أسئلتي. طلبت رقم «نور»، وقبل أن تنطِق بكلمة بادرتها بسؤالي:

ـ نور، هو آدم قالّك حاجة عني؟

ـ لأ العادي يعني ما قالش حاجة جديدة، هو حصل حاجة؟

أغلقتُ المكالمة في وجه نور التي لم تتوقّف عن معاودة الاتصال بعدها.

مما دفعني إلى إغلاق الهاتف قبل رميِه في مكانه المقدّس في الدرج من جديد، وأغلقتُ عيني في محاولةٍ مُستميتةٍ للنوم للأبد.

لا أعرفُ كم من الوقت نِمتُ تحديدًا، وجدتُ أمي تدور في أنحاء الغرفة وتتحدّث لأحدٍ ما على الهاتف.

تمالكتُ قواي ولامستُ الأرض مستندة إلى الحائط وتحرّكت نحو الباب.

ـ رايحة فين؟ (أمي في توتر.)

ـ رايحة عند عبد الرحمن شوية، زهقانة من السرير.

ـ عبد الرحمن مين؟

ـ مش انتوا اللي قولتولي روحي زوري الناس؟

أومأت برأسِها في موافقة وتابعت هي مكالمتها الهاتفية.

قطعتُ الطرقة الفاصلةَ بين الغُرفتين وأنا أستندُ إلى الحائط بيدٍ وأداعبُ خُصلاتِ شعري بالأخرى إلى أن وصلتُ إلى باب الغرفة التي بدت من النافذة الزجاجية الصغيرة ممتلئةً بالألوان على عكس كل الغرف الأخرى التي تنشعُ بياضًا كئيبًا.

وقفتُ أمام الباب أتأمّل الغرفة. وأُحدّقُ في الرّقم المحفور على اللوحة.

دخلتُ أخيرًا فبادرني عبد الرحمن بالتحيّة:

ـ كويس إنّك جيتي يا عالية، عندي ليكِ هدية.

قالها بصوتٍ يفيضُ بهجة وابتسامةٍ تفوقُ الكونَ اتساعًا، وهو يشيرُ بفخرٍ إلى بالونٍ قُرمزي اللون منقوش بفراشاتٍ صغيرة ويحمل حرف L.

نقلتُ نظري بين ابتسامته والبالون عدّة مرات قبل أن أسأل أخيرًا:

ـ ده ليّا؟

أجابَ بثقة:

ـ آه طبعًا، أنا خلّيت فريدة أختي تجيبه النهاردة وتحطّلك عليه حرف L وكنت ناوي أجيبهولك الأوضة، بس انتِ سبقتيني وجيتي.

حدّقتُ في عينيه فلم أرَ فيهما إلا صدقًا خالصًا وبهجةً تختلط بالوجع النابض في جسدِهِ المريض. الوجع الذي يُضفي على وجهه مسحةَ وَهنٍ يُحاول إخفاءها خلف الابتسامة الواسعة.

ـ بس.. بس أنا اسمي عالية. (قلتُ بتشكّك.)

ضحك قبل أن يقول:

ـ طب ما أنا عارف، بس مش انتِ بتحبّي اسم لي لي؟

اتّسعت حدقتاي دهشةً! لي لي؟!

لم يُنادني أحدٌ باسم لي لي سوى آدم، ولا أذكُر أني أخبرتُ عبد الرحمن أي شيء عن «آدم»، وطبعًا لا يُعقل أني أخبرتُه شيئًا عن اسم لي لي لأنه يذكّرني بآدم الذي أعرف أنه ما زالَ يسري في عروقي رغم افتراقنا.

ـ اقعدي يا عالية، انتِ وعدتيني تحكيلي عن الفراشة.

جلستُ أمامه وأنا شاردةٌ، أحاول تذكّر ما حدث قبل نومي مباشرةً، بلا فائدة. سألني عن سبب الحُزن البادي على وجهي معظم الوقت. وكانت ابتسامته هو الآخر قد اختفت حينها.

ـ كبيرة ولونها أبيض وفيها خطوط حمرا وبنفسجي. (قُلتُ واصفةً فراشتي.)

واستكملتُ حكايتي عن المرج الأخضر والعالم المُكتمل الذي أهربُ إليه، كانت تلكَ المرّةَ الأولى التي أحكي فيها عن عالمي بهذا الصّدق. وبأدقّ التفاصيل.

لكنّي في النهايةِ تعمّدتُ إخفاء تفصيلةٍ واحدة، (خالد)، لا أعلمْ لماذا تعمّدتُ ألا آتي على ذكره تمامًا رُغم أنهُ كان حاضرًا في معظم عوالمي، وكانَ حُضورهُ قويًا وواضحًا، إلا أنني اخترتْ أن أتجاهل تلكَ التفصيلة المُهمّةَ تمامًا.

لذا بدَت حكاياتي ناقصة، لكنّها كانت أقلُّ ذُعرًا، وأقلُّ تنفيرًا.

كانت ممتلئةً بالخَضارِ والموسيقى والفراشات، والخيال، الكثيرُ من الخيال.

تغاضيتُ عن كُل ما يخُص المعركة، والقتلى، والأشباح. كانت ابتسامتهُ تتسع مع كُل كلمةٍ أضيفها، وهو ينظرُ إلى كُل الشّغفِ البادي في عيني وأنا أصِفُ عالمي.

كان يعلمُ جيدًا أنه استطاع اختراقي ولو قليلًا وأني قبِلتُ إعطاءه بعضًا من أسراري. أنه كان يقتربُ أكثر، وأنّ ابتسامتهُ البريئة تلك استطاعت ملامسة دواخلي، والتلاعُب بمفاتيح أبوابي المغلقة.

حكيتُ عن القصص التي أكتبُها ولا يعلمُ بوجودها أحد، ورغم أنها من نسجِ خيالي إلا أني أحيانًا أصدّقها. وعن مخاوفي السوداء، وعن ذُعري غيرِ المُبرّر من المُدُن البلاستيكيّة ذات البناياتِ الشّاهقة غيرِ المتناسقةِ كمدينتنا هذه.

ـ انتِ عُمرك حكيتي الكلام ده لآدم؟

لم أكُن أرغبُ في الحديث عن تفاصيل علاقتي بآدم، عن أسباب افتراقنا، وعن الفتور الذي قطّع أوصال علاقتنا. لذا فضّلتُ الانسحاب.

ـ أنا لازم أمشي ماما هتقلق عليّا.

قُلتُ منتفضةً من مكاني وهو ينظرُ إلي بابتسامةٍ ثابتة ومُطمئنّة قبل أن يناولني خيط البالون الأحمر، مددتُ يدي لأخذه فتلامست أطرافُ أصابعنا متسبّبة في رعشةٍ مُزلزِلةٍ في جسدي، كادت تُفقدني توازني.

أسرعتُ إلى الباب متجنّبةً النظر إليه، فلاحقني صوته:

ـ على مهلك يا لي لي، انتِ تعبانة.

استطعتُ تمييز القلق في نبرته. فالتفتُ ونظرتُ إليهِ نظرةً أخيرة ثُمّ هربتُ مسرعةً إلى غرفتي أحملُ البالون، أزلتُ الثّقل الذي يثبّته إلى الأرض، صعدت وأنا أحملهُ إلى سريري، وعيني لا تفارقُ حرف الـ(L) المُحاطِ بالفراشات.

جلستُ متربّعةً فوق السرير. وتركتُ البالون ينسحبُ من يدي رويْدًا ليصطدم بالسّقف.

رغم أنه ممتلئ بالهواء. إلى أني شعرتُ وكأن حجرًا ضخمًا يصطدم بالسقف ليهدّهُ فوق رأسي.

أرحتُ ظهري على السرير وأخرجتُ الهاتف المغلق من الدُّرج، فتحتهُ لأنتظر بملل رسائلَ شركةِ الاتصالات بمكالماتي الفائتة.

٢٤ مكالمة من نور! ضحكتُ قبل أن أتصلَ بها.

ـ لو هتزعّقي هاقفل يا نور (بادرتُها مداعبةً.)

ـ كنتِ فين؟.. وقفلتي في وشّي ليه؟ (كان صراخها يكادُ يُسمَع من الغرفة المجاورة.)

ـ معلش الموبايل فصل شحن ونسيته ورُحت عند عبد الرحمن.

تعرّضتُ بالطّبع لتحقيقٍ قضائي واستقصائي عن من يكونُ عبد الرحمن؟ ولماذا أذهبُ إليه؟ وأين؟ ومتى؟ وكيف؟

أتبعَت نور سيلَ أسئلتها بمحاضرةٍ طويلةٍ عن أنني يجبُ أن أقطع ارتباطاتي النفسية المُعقّدة بآدم، وأنني يجبُ أن أستمر، وأنّ الحياة لا تقفُ على شخصٍ مهما كان. وأنّ تركَ آدم كان اختياري الذي يجبُ أن أتمسّك به ما دام هذا ما أردته. وأنها لا تقصِدُ الضغط عليّ أو إجباري على ما لا أُحِب لكنّها عادت لتؤكّد أنّ تلكَ كانت إرادتي واختياري الحُر.

لم أكُن أعرفُ حقًا إن كان الابتعادُ الكامل عن دائرة آدم هو حقًا ما أُريد، ما زالَ صوتهُ كافيًا لإثنائي عن قراري كُل مرةٍ ولو للحظات.

أذكُرُ أوّلَ مرةٍ قررتُ فيها التخلّي عن علاقتي بآدم والهرب بعيدًا، ولأنني لم أملُك الشجاعة الكافية لمواجهته بقراري، اخترتُ وقتها أن أُرسِلَ إليه رسالةً تُعفيني من الحديثِ وجهًا لوجه. لكنّ ذلكَ لم يكُن كافيًا بالنسبة له، فأصَر على مُقابلتي للحديث في الموضوع، وأنني أجّلتُ تلكَ المواجهة أسبوعيْن كامليْن.

وقتها كانت نور تُصِرُّ على أن الهربَ لن يُفيدني، وأنّني ما دمتُ واثقةً من قراري فعليّ مواجهتهُ بهِ إذًا. لم أستطع إخبارها أنني أهرُبُ لأنني إن رأيتُ اللومَ في عينيه فلن أملُك سوى التراجع، وقد كان.

تعاونت نور مع آدم على تدبير مقابلتنا لآدم صُدفة، وانسحبت هي، ولا أذكُر أن آدم وقتها احتاج أن يقول أكثر من «ليه يا عالية؟!» ليجِدني أنخرط في بُكاءٍ عجَز عن إيقافه وتراجعتُ في الحال.

كان عقلي ينبضُ حيرةً حتى يكادُ ينفجر.

أنهيتُ مكالمتي مع نور بعد أن تركتُ لها الفرصة لتحكي كل القصص والمواقف التي فاتتني بسبب بقائي في المشفى. ولا أذكُر أنني سمعتُ كلمةً مما قالته. أقنعتُ نفسي ألّا أفكّر في أي شيء، في آدم أو عبد الرحمن أو خالد، وعلى الخصوص خالد، أو حتى في الفراشات كي أستطيع النوم.

الألم الناتج عن الحيرة في رأسي منعني من الشعور بأي آلامٍ جسدية أخرى، وكانت تلك فرصة ذهبية للنوم بلا مسكّنات.

كُنتُ أحتاج أن أعدّ النجوم، لكن تلك البنايات الحمقاء التي تحيط بي من كل اتجاه منعت عنّي رؤية السماء، ولم أكُن أريدُ اللجوء إلى خيالي. فلم أجد أمامي سوى عَد الفراشات التي تُزخرف بالوني الأحمر، متفاديةً النظر إلى حرف الـ L أو التفكير فيه وفي صاحب البالون. بدأتُ في عدّها حتى مللت فبدأت في الدندنة لنفسي:

«يلا تنام ريما.. يلا يجيها النوم.. يلا تحِب الصلاة.. يلا تحِب الصوم.. يلا تجيها العوافي.. كل يوم بيوم»

تعوّدتُ أن أغنّي وأدندن لنفسي حين يستعصي عليّ النوم، ربّما لم أفعل ذلك منذ سنوات، لكن لا ضيْر من المحاولة.

ومحاولتي نجحت على أي حال وداهمني النُّعاس، ورحلتُ إلى عالمٍ هادئٍ خالٍ من الأحلام يكسوهُ صمتٌ مُطبق.

(٤)

أحسستُ بحركةٍ بجوار سريري، لا بُدّ أنها الممرضة تضيفُ دواءً أو تغيّر المحلول المتسرّب إلى جسدي.

اليوم الرابع في هذا المكان الكئيب الكريه، رائحةُ الأدوية والمعقّمات التي تفوح من كُل مكان تكادُ تُفقدني حاسّة الشم.

صراخ وأنين الوجَع المستمر المنبعث من الغُرف المجاورة من آنٍ إلى آخر يكادُ يصيبني بانهيارٍ عصبي حاد. وصوتُ الإسعاف من وقتٍ إلى آخر يُفزعني في كُل مرّة. ورُغم ذلك كلّه ما زالت لديّ القُدرة على الاستيقاظ كل صباح ومواجهة هذا الكون وذاك الواقع الغريب.

التفتُ وفتحت عيني ببطء، لأجد ابتسامتهُ الواسعة في انتظاري. انتفضتُ في السرير:

ـ عبد الرحمن!!.. انت بتعمل إيه هنا؟

ـ صريخك كان مسمّع الدور كلّه بالليل يا لي لي! صحّيتيني وماعرفتش أنام تاني فقلت أستنّاكي تصحي، كان كابوس؟

لم تتغيّر نظرتي المفزوعة ولم أُعطِ أي إجابة.

أخبرني أنهُ سينتظرُني في غرفته ليهزمني في مباراة كُرة قدم بعد أن أستفيق وأتناول أدويتي.

لا أعرفُ لما وجدتني أجيبه بجديّةٍ تامّة:

ـ لأ أنا ما باحبّش الكورة، لو عندك حاجة سباق وعربيات ممكن.

ازدادت ابتسامته إشراقًا واتساعًا كما لم أرها من قبل، وكأنّ عيونه ذاتها كانت تضحك حتى كِدتُ أسمعُ ضحكاتها:

ـ كُلّه موجود، انتِ تؤمري يا سعادة الملكة، كده كده هتتغلبي، مش هتفرق كتير.

للمرّة الأولى ضحكتُ ضحكةً حقيقية.

ـ أوّل مرة تضحكي. (بابتسامةٍ بهيّة قالها.)

كادت أعصابي تتهاوى أمام ابتسامته الأخيرة تلك. وتسارعت دقّات قلبي قليلًا.

اتّجهتُ نحو الحمّام بخطواتٍ مؤلمة، أغلقتُ الباب خلفي وأغرقتُ وجهي بالماء عدّة مرّات، حدّقت في المرآةِ إلى وجهي الشاحب وعيني الغارقة في بحيرةٍ سوداء تُحيطها من كُل اتجاه. جفوني تكادُ تتحوّل إلى قطعة من الفحم.

أنا لا أعرفُ عبد الرحمن، لكنّي أعرفُ عيونه السوداء الداكنة،

العيون التي تبدو بحرًا من البهجة أحيانًا وقبرًا من الحزن في أحيانٍ أخرى. لا أعرفُ قصّته، ولا ما يحزنه وما يُبهجه، لا أعرفُ إن كان يبكي في وحدته. لا أعرفُ عبد الرحمن، ومع ذلك سمحتُ لنفسي أن أسقُط في شباك عينيه من المرّة الأولى.

لم أكُن أعتقدُ أن أحدًا غير آدم يمكنهُ غزوَ قلبي بنظرتينِ وبضعِ كلماتٍ بهذه البساطة، ولكن ها هو يحدث.

مرّةٌ واحدة كانت كافيةً لغزوِ أرضي وإحراق ما تبقّى منها وتركها مُشتعلةً، كُلّما خَبَت زدتُها اشتعالًا بصَب الـ «دوبامين» فوقَ رمادها، هو لا يقصدُ حرقَ أرضي، لكنّه لا يعلم كم أنا قابلةٌ للاشتعال، وأن الشموع التي يضيؤها لي ليتحسّس طريقه في ظلامي، تتسبّبُ في إحراقي في النهاية.

هو اقتحم أرضي كاملةً وأنا لم أعرف عنه شيئًا ولم أضع قدمًا في أرضه. لم أُشارِكهُ حُزنه ولم أهدهد شيئًا من أوجاعه. كيفَ سمحتُ لنفسي أن أحكي له ما لم يعرفه غيره، كيف أسمح له باقتحام عوالمي ومشاركتي فيها؟

كيف ومنذُ متى أصبحَ غزوي واحتلالي سهلًا إلى هذا الحد؟!

رفعتُ رأسي إلى المرآة، عدّلتُ خُصلات شعري المبعثرة وأنا أنظرُ إليها في حُب، شعري الطويل المُدلّل والذي أنهكهُ التّعب كما أنهك جسدي الهزيل.

وقبل أن ألمس الباب رأيتُها.

الفراشة..

بيضاء بخطوط حمراء وأرجوانية متقطّعة.

عُدتُ إلى المرآة.. أينَ المرآة؟

المرج الأخضر المترامي الأطراف، صامتٌ كليالي الصحراء.

فستاني الأبيض الحريريّ لا يحمي من لسعةِ البرد.

جلستُ أُسنِدُ ظهري إلى الشجرة الوحيدة في المرج، الشجرة ذاتها التي رأيتُ عندها خالد ذات مرة، رُغم أنّها لا ظِلّ لها، فالظواهرُ الفيزيائية لا تنطبقُ على هذا المكان، وأشعةُ الشّمس لا تنعكس، ولا تُسبّبُ ظلالًا. جلستُ أداعبُ شعري. شعري!!!

متى أصبحَ قصيرًا هكذا؟! أنا لم أقصّه! انتفضتُ في مكاني واقفةً أبحثُ عن مرآة، لا توجدُ مرآة في المرج.

أسرعتُ إلى بحيرةٍ قريبة، نظرتُ إلى سطحها أتأمّلُ خصلات شعري التي لا تكادُ تلامسُ أذني.

جثوتُ على رُكبتي فقدماي لم تعُودا تحملانني وأصابتني نوبةُ بُكاءٍ هيستيريّة وأنا أضربُ سطح الماء بيدي بعصبيّة.

شعرتُ بيدٍ تُلامسُ كتفي بهدوء، رفعتُ رأسي لأجدَ خالد يجثو على رُكبتيْه بجانبي. ارتفع بُكائي المُنهَك، فاحتضنني دونَ أن ينطِق بكلمة. فسألته كما أسألُه عادةً:

ـ انت مشيت ليه يا خالد؟ مشيت وسِبتني ليه؟ مش كُنّا اتفقنا نحاول نجرّب تاني.

هذه المرّة لم يُجِب بإجابته المعتادة، مسحَ على شعري، ثُمّ قال بهدوء:

ـ انتِ ممكن تيجي معايا لو عايزة يا عالية

لم أفهم ما يقصده، أنا لا أعرفُ أين نحن، ولا أعرف إلى أينَ يُريدُني أن أذهبَ معه، شيءٌ ما كان يمنعني من الاطمئنانِ لهُ كما اعتدتُ قبلَ رحيله. مسَحَ فوقَ شعري مُجدّدًا وأخرجَ من جيبه وريْقةً مطويّةً وضعها في يدي ثُمّ أغلقَ قبضتي من فوقها.

ابتعدتُ عنهُ قليلًا، ونظرتُ إلى عينيه الزُجاجيّتين.

فجأة، اهتزّت الأرضُ من حولي وكأنّ ديناصورًا ضخمًا يسيرُ فوقها بكُل ثقله. المياهُ الراكدةُ في البحيرة صارت تتقلّبُ وتفيض وكأنها تغلي بعُنف، ثُمّ تُغرقني، وأصواتٌ تتعالى من اللامكان: «عالية.. عالية»

بابٌ ما ينفتح وقبضةٌ تمسكُ بذراعي وترجُّني رجًّا:

ـ عالية.. عالية

«يا صورةً لها على المرآةِ.. لم تنكسِر

حبيبتي ـ مثلك ـ لم تشبه جميع البشر

عيونها حدائق حافله بالصور»

ـ عالية انتِ بتقولي إيه؟.. عالية رُدّي عليّ.

ألمٌ مُبرِح كسكاكين تخترقُ ساعدي وتواصلُ إلى كتفي وعُنقي لتنسابَ وجعًا خالصًا عبر عمودي الفقري.

ارتطامٌ حاد.

عبد الرحمن ينظرُ بذعرٍ إلى وجهي الواجم وعيني الشاردتين مُمسكًا بيدي المرتعشة التي تتمسّكُ بقوّة بالمقَص الذي أحمله.

مقَص!!

أحاولُ استعادةَ تركيزي وأنا أنظُر إلى خصلات الشعر البني الطافية على سطح المياه التي تملأ الحوض وتفيض.

ملابسي المبتلّة!

قدمي الحافيتين.

أظافري التي تحوّلت إلى الزُّرقة بعد أن هجَرتها كرات الدم الحمراء جميعها متهجةً إلى رأسي والذي كان ينبضُ ألمًا في تلك اللحظة.

شعري الذي لم يعُد به خُصلتان بنفس الطول.

- ليه عملتي كده يا عالية؟ ليه قصّيتي شعرِك؟

(قالها عبد الرحمن بوجهٍ اختلط فيه الحُزن بالدهشة بالخوف والقلق فأخفى هذا المزيجُ ابتسامته التي لا تفارقه.)

لم أستطع إعطاءهُ إجابة، أنا لا أعرف لمَ قصصتُ شعري، ولا أعرفُ كيف ومتى قصصتُه.

تمالكتُ أعصابي وخوفي ونظرتُ إلى عبد الرحمن بابتسامةٍ هادئة محاولةً طمأنته:

ـ عادي كان مضايقني من فترة.

لم يُصدّقني، أعلمُ جيداً أنه لم يصدّقني، لكنّه خرج إلى غرفته بعدَ إلحاحٍ منّي على أي حال.

جلستُ إلى سريري في محاولةٍ لتذكّر ما حدث. فتحتُ يدي التي كانت لا تزالُ مُنقبضةً بعُنف فوجدتُ الورقة المطويّةَ قابعةً بينَ أصابعي.

فتحتُها بيدَيْنِ مُرتعشتيْن لأقرأ الكلماتِ المخطوطة بخطٍّ مُنمّق:

«يا صورةً لها على المرآةِ.. لم تنكسِر

حبيبتي ـ مثلك ـ لم تشبه جميع البشر

عيونها حدائق حافلة بالصور»

كررتُ الأبيات عدّة مرّاتٍ قبلَ أن أفتح الدُرج لألقي بالورقة فيه، غرستُ أصابعي بعُنفٍ في شعري القصير، ورميتُ برأسي على الوسادة رميًا، ثمّ أغلقتُ عيني لأستمتّع بالسواد الصامت.

لم أعُد أتحمّلُ كم الحيرة، ولم أعُد أملك المقدرة على التمييز بين ما يحدُث وما لا يحدُث، كُل شيءٍ صارَ مُختلطًا إلى حدٍّ مُخيف.

ـ عالية.. لي لي.

أفتحُ عيني ببُطء في محاولةٍ للاقتناع أني ما زلتُ حيّة، أحاولُ حماية عيني من أشعة لمبة النيون.

-لي لي.. صباح الخير.

نظرتُ إليهِ وهو يحملُ باقة الليلك الأبيض المربوطة بشريطة ستان حمراء معقودة.

بابتسامته المكسورة وفنجانيْ القهوةِ في عيونه اللوزية الشاردة.

أنظُرُ إليه وعيونه رغم شرودها تُخبرُ بوجع قلبه الذي يحمله فوق باقة الورد.

لا ذنبَ له، لا ذنب لهُ في كُل ما يحدُثُ لي، ولا ذنبَ لأحدٍ سوايْ.

تتغيّر ملامح وجهه عند مواجهة عيوني، وتزدادُ ابتسامته ارتياحًا دون أن يزدادَ اتساعها، وتقلّ زاوية الكسر فيها قليلًا.

ـ عاملة إيه دلوقتي؟.. وحشتيني.

لم أقوَ على الرّد.

ـ انتِ قصّيتي شعرك إمتى؟

تابعَ أسئلته رُغم عدم تحرّك شفاهي بأي إجابة.

ـ انتَ جيت إمتى يا آدم؟ (قُلتها بصوتٍ مرتعش.)

جلس على الكُرسي المقابل لسريري ويدهُ تستقرُّ برقّةٍ فوقَ رُكبتيْ، قبل

أن تضيق ابتسامته بضعة ميلليمترات وهو يجيبُ ببحّةِ صوته المعهودة:

ـ ما كنتيش عاوزاني آجي؟

ليتهُ يعرفُ شيئًا عن الحيرة، الحيرة التي تُقلّب عقلي ثُم تثير فيه دوّاماتٍ صغيرة، تتجمّع وتتحدُ وتعصفُ برأسي كاملًا. ليتهُ يعرفُ كيفَ تشعُر حين تهربُ من وَجَعٍ لترتمي في حُضن وجعٍ آخر. ليتهُ يعرفُ أنّ الفقدَ يُطاردُكَ مهما تناسيته، وأنّ المفقود عادةً يأبى الرّحيل، فيُطاردك بأعنف الطرُق وأكثرها قسوة. ليتهُ يمتلكُ دماغًا كالذي أملكُه أنا، دماغًا يفقدُ السيطرة على ذاته وعلى خياله الخاص.

انتزع آدم زهرة ليلكٍ صغيرة من بين أخواتها. واقتربَ مني ساندًا رُكبته على طرف السرير بجانبي، وزرع الليلكة البيضاء بينَ خُصلات شعري البنيّ المُبعثر المقصوص.

ـ حلوة القصّة، انتِ دايمًا حلوة، احكيلي بقى، زعلانة ليه؟

ـ أنا مش زعلانة يا آدم.

عادَ إلى مكانه وأسنَد ظهرهُ إلى الكُرسي وابتسامتهُ تضيقُ أكثر حتى تكادُ تختفي، موجّهًا المزيد من الأسئلة، ومُخفيًا انفعالهُ من صمتي. حتى فقد أعصابهُ وثارَ في النهاية ليخرجَ عن هدوئه المُصطنع ويصرَخ فجأة:

ـ عالية أنا مش عارف أعملّك إيه! أنا مش قادر أفهم إحنا ازاي بقينا كده؟

شكا لي من حالة الملل التي وصلنا إليها، وأنني رُغم ذلك كُنت أجيبُ على سؤاله كُل ليلة.

ـ باقية على العهدِ يا عالية؟

ـ إلى الأبد.

ثمّ أستيقظُ في اليوم التالي لأنكرَ كُل ما حدث، وأتهمهُ بالكذب. أو ألوي الحقيقةَ لأتهرّبَ من وعودي كُلّها.

وضعني في نهايةِ كلامه أمام مُفترق طرُق، رغم عِلمه أنني لستُ شخصًا قادرًا على اتخاذ القرارات، أعطاني مُهلةً غيرَ مُحددة لاتخاذ قرارٍ بشأننا وإخباره به حينَ أُقرّر:

ـ معايا أو مش معايا يا عالية، اختاري.

قبلَ أن أحاول إسماعهُ صمتي المُطبق من جديد، اقتربَ ووضع يديه على كتفي الهزيل وطبعَ قُبلةً بينَ خُصلاتِ شعري بجانب زهرة الليلك التي زرعها هناك وخرج مُسرعًا حاملًا وجعه وما أسبّبه له من حيرة، وحُبّه الذي يكادُ يقتله.

آدم سيعود، أعلم أنه سيعود. فهو باقٍ على العهد الذي نسيته أنا أو تناسيته عمدًا.

هو لا يستحقُّ مني كُل هذه القسوة، وأنا لا أتعمّد أن أقسو عليه، كُل ما في الأمر أنني لا أعلمُ من أنا الآن، ومن هُم، لم أعُد أثقُ في الواقع ولا في الخيال، في الماضي أو فيما أعيشه في اللحظة الحالية.

لم أعُد أثقُ في الحقائق، رافعةً شعار أن الحقيقةَ الأبقى هي أنه ليس هُناك من حقائق ثابتة.

انتزعتُ زهرة الليلك التي كانت قد شبّكت أوراقها بين خُصلاتي، وبدَت كأنّها لا تُريدُ مفارقة شعري، وكأنّ آدم زرعها ورواها بقُبلته في فروة رأسي، فغرست لها جذورًا في أعصابي مُشبّكةً أطراف الجذور بأطراف خلايا دماغي المرهق.

انتزعتُها غصبًا بشيء من العُنف فخرجت تحملُ بضع شعراتٍ بنيّة ورُبّما بعض الخلايا العصبيّة المُنهكة، وقُبلتهُ الحزينة. تنهّدتُ متأمّلةً الزهرة الهامدة في يدي كالموت.

رفعتُ رأسي إلى السقف لأُبعد نظري عن الزهرة التي شعرتُ وكأنّها تحدّثني وتلفُ غصونها حول معصمي. وفي السقف، كانت يُحلّقُ بالون عبد الرحمن الأحمر حاملًا حرف الـ L العائم بينَ الفراشات. بدَا لي أكبر حجمًا، وهُيّئ لي أن الفراشات المنقوشة عليه تُحلّقُ حوله.

اقتربتُ من النافذة باحثة عن حمامةٍ أحدّثها، أو طائرٍ شارد بلا مأوى فجاءتني هي كالعادة، الفراشة البيضاء بخطوطٍ حمراء وأرجوانية متقطّعة.

ولأول مرّة انفجرتُ في بُكاءٍ طويل.

صوتُ اقتراب خطواتٍ وضحكات من باب غُرفتي منعني من استكمالِ بُكائي الذي كُنتُ أحتاجهُ بشدّة.

وقفوا أمامي بنظرةٍ لا تُخفي الصدمة، عينين متّسعتين لا ترمش، وبؤبؤ ثابت، وعضلاتٍ مُتيبسة. وكأن صاعقةً قد نزلت عليهم. نطقت نور في النهاية:

- عالية، انتِ قصّيتي شعرك كده ليه؟ وقصّيتيه ازاي؟

أما أمي فقد اكتفت بنظرةٍ ناريّةٍ حادة رمقتني بها قبل أن تُغادر الغرفة في صمت باحثةً عن أبي لتشكي لهُ همّها كالمُعتاد.

كُنتُ أريدُ الهرب، الهرب فقط، ترك كُل الحيرة وراء ظهري والتلاشي إلى مكانٍ لا أعرفه ولا يجدُني فيه أحد، لكنّ حتى الحقَّ في الهرب لم يعُد مكفولًا لي. لم أعُد أطيقُ التفكير في أي شيء. في خالد الذي أحاول إكراه نفسي على نسيانه أو تناسيه، وفي عبد الرحمن الذي يخطو خطواته الأولى إلى عالمي الممتلئ بالتناقضات والحيرة والخوف، وفي آدم الذي لا يعرفُ مكانهُ في حياتي ولا أعرفُه أنا أيضًا، كنت أريدُ الهرب منهم جميعًا ومن ذاتي.

أدرتُ ظهري لنور التي كانت لا تزالُ مُتسمّرةً أمامي في انتظارِ أي إجابات، وغرستُ وجهي في الوسادة واستدعيتُ النوم بكُل ما أوتيتُ من قوّة.

(٥)

بأنفاسٍ مُتقطّعة، وابتسامةٍ متلاشية، ووعيٍ غير مُكتمِل، وعيون دامية، وحساسيّة مُفرطة من الأشياء والأشخاص والمواقف والكلمات ومن الهواء، وعلى الخصوص الهواء.

بسبعة أنواع مختلفة من الأدوية، وسخطٍ على كُل شيء، ورفضٍ عام ممزوج بغُصّة.

بأجنحةٍ متكسّرة، ومتساقطة.

كُنت أعلمُ تمامًا أني فقدتُ كُل أنواع السيطرة، وأنّ اللعبة التي كنت أتحكّم بها لم تعُد تخُصّني، صرتُ أعلم أن قوّةً أكبر مني ومن خيالاتي البريئة تتحكّم في ذلك كله، رسالةً ما يجب أن تصلني من كُل ما يحدُث.

اليوم أنا لا أقوى على رؤيتهم، صِرتُ أشُك أنني أعرفهم.

رفعتُ رأسي أراقبُ الحركة المتهاوية للبالون الأحمر الذي تناقصَ فيه الهيليوم فصارَ يزدادُ اقترابًا من رأسي شيئًا فشيئًا.

سمعتُ نفسي أكرّر مجدّدًا على غيرِ وعي:

معركتي لا نهائية..

عليّ أن أحاربَ أكثر ما دامَ في وسعي..

معركتي لا نهائية..

تبدأُ هنا وتنتهي في الجانب الآخر من الكون..

وليسَ للكونِ نهاية..

وليس للكونِ جانبٌ آخر..

لذا فمعركتي لا نهائية..

وأنا أحاربُ وحدي..

وحدي أنا والفراشة..

كانت تلكَ العباراتُ بمثابة استدعاءٍ للفراشة، التي لم تأتِ هذه المرة، فهي لم تعُد تأتي حين تُستدعى، مما زاد من إدراكي أن خللًا ما قد حدث وأن شيئًا أكبر مني يُمكن أن يحدث.

رفضتُ كل الزيارات اليوم، ورفضت الخروج من الغرفة، أو الرّد على كل مكالماتي، أو قدومَ عبد الرحمن إلى غرفتي.

كان عليّ أن أرتّب ما يحدُث، على الأقل في داخلي ما استطعت.

مشاعري تجاهَ عبد الرحمن الذي صارَ يعرفُ كُل شيءٍ الآن، صارَ

يعرفُ ما لا يعرفهُ آدم وربّما لن يعرفهُ أبدًا. كُل شيءٍ عدا خالد وظهوره المُتكرّر.

كانَ السّكونُ يلُف المكان على غير العادة، للحظة أحسست أن كُل من في المشفى قد سقطوا ميّتين.

شعرتُ بلسعةِ بردٍ فمددتُ يدي إلى وشاحي الملوّن المنقوش، سترتُ بهِ كتفي واتّجهتُ نحوَ النافذةِ المواربة لأغلقها.

وقفتُ أمام النافذةِ أرقُبُ اهتزازَ الأشجارِ بفِعلِ موجةٍ من الرياح التي تُنذِرُ باقترابِ الشتاء. ازدادت البرودةُ السارية في جسدي، والتي تزحفُ إلى قلبي، فأحكمتُ لفّ الوشاح ليكسو رقبتي.

أحاولُ سترَ هشاشتي تحتَ طبقاتِ جلدي الخفيفة، أحاولُ عبثًا البحثَ عن أكثرِ بقاعِ جسدي عُمقًا، وأكثرها ثخانةً، لأُخفي الهشاشةَ تحتها قبلَ أن يشتدَّ بردُ الشتاء. ذاكَ أنّني لا أعتقدُ أنّي أملُك من القوةِ ما يكفي لاحتمالِ الرياح التي لا تحتملُها جذوعُ الشجر فتنخلعُ من أرضها أو تسقُطُ منكسِرةً، أو حتى أن تحيدَ عن استقامتها فتميل نحوَ الجنوب قليلًا لتُفادي رياحَ الشّمالِ الباردة القاسية.

وفي كافّة الأحوال، وعلى اختلاف ردودِ أفعالِ الشّجر، فإنها تُضطرُّ أن تدفع قرابينَ من أوراقها وثمارها الناضجات للرياح، كي ترأفَ بها ولا تُرديها جُثّةً ذابلة. جذوري متآكلةٌ للغاية، وبالكاد تغرسُ أطرافها بضعة سنتيمتراتٍ في العُمق، وجذعي مائلٌ بزوايا مختلفة، حادةٍ وقائمةٍ ومُنفرجة، لكنّها أبدًا لا تصلُ في انفراجها إلى الاستقامةِ التامة.

أخشى على هشاشتي من التناثُر كالرمادِ مع أوّل عصفةٍ تداهمها، فأختفي خلفَ طبقاتِ الجلدِ وبعضٍ من الصّوف الملوّن، وأتلفّحُ ببقايا الذاكرة التي تُرهقني فقط كي أستطيعَ فرزها وتصنيفها كيْ أعرف ما يُمكن استدعاؤه لجلبِ الدفء الذي يُخفّفُ برد الشتاء.

وأرجو أن تتذكّرني الرياحُ هذه المرة، أنني أنا من كُنتُ هنا العامَ الماضي أُصارعُ للتغلُّبِ على الفقد والوجع والحيرة والوحدة، أنا من أصابني الحُزنُ غيرَ بعيدٍ ولن أحتملَ موجةً أخرى.

أنا لا أملُك مثلَ غيري قرابينَ أُهديها للشتاءِ هذه المرة، فالأوراقُ مُصفّرةٌ للغاية، والثمارُ لم تجد هرمونات النضوجِ إليها سبيلًا فبقيت ألوانُها تتراوحُ بينَ الصُّفرةِ والخضار وبضعِ درجاتٍ باهتةٍ من الورديّ لا تكادُ تستبينها. أما الورودُ فما زالت براعمَ أحاولُ جاهدةً أن أُخفيها عن أعيُن الشتاء وأعيُن العالمين، لأرويها بما يُمكنُ أن يصلني من المطرِ، لأجلِ الشتاء القادم.

أغلقتُ النافذةَ وعُدتُ إلى سريري مُجددًا. تسمّرتُ قليلًا في وضع الجلوس الصامت على طرفَ السرير. فتحتُ الدرج الذي يحوي كُلّ أسئلتي ومواطن حيرتي، أخرجتُ زهرة الليلك التي تخُصُّ آدم، والورقة المطوية التي أعطاني إياها خالد، وأمسكتُ بطرف خيط البالون الأحمر المتهاوي فوقَ رأسي.

أمسكتُ بورقةٍ وقلم ورُحت أقسّم الورقة إلى مربعاتٍ متساوية وأكتُب الاسم تلو الآخر كُلٌّ يسكُن مربعًا وحده.

آدم

خالد

عبد الرحمن

نور

أبي

أمي

الطبيب

وختمتُها بـ عالية.

حلّقت الفراشةُ أمامي فابتسمتُ في تحيّة، ابتسامةُ خوف، رُبّما، لكن ليس هناك ما أخسرهُ على أي حال. فردت جناحيها عدّة مراتٍ أمامي.

لم أرى المرجَ الأخضرَ هذه المرّة، رحلتُ لأول مرة إلى مكانٍ مُغلق وخافت الإضاءة، رغم أنّ عوالمي كانت تمتازُ عادةً بأنها لا حدود ولا حوائطَ لها. رأيتُ مكتبةً ضخمة، الكتُب منسّقةٌ فيها بعناية. سجّادةٌ حمراء دائرية تتوسّط الأرضيّة الخشبيّة التي تُصدِرُ أزيزًا مُحبّبًا مع وقعِ خُطواتي فوقها، وفي أحد الحوائط نافذة مثلثة تُسقِطُ ضوءًا هادئًا.

صعدتُ عدّة درجاتٍ لأصيرَ أمام المكتبة مباشرةً، رفعتُ نظري إلى النافذة ولم أرَ مرجًا أخضر، رأيتُ شارعًا عاديًا مزدحمًا تصطفُّ على جانبيه السيارات.

عُدت إلى المكتبة، وشرعتُ أتفحّص الكتب التي بدت مألوفةً رغم غرابة عناوينها. في الرّف العُلوي، رأيتُ اسمه، عبد الرحمن على كتابٍ ذو غلافٍ أزرق داكن وسميك. أمسكتُ الكتاب وتربّعتُ فوق السّجادة الحمراء، نفضتُ عنهُ الغبار ورُحت أقلِّبُ في صفحاته، وكان ممتلئًا برسومٍ غريبة بقلم أسود، وأبيات شعرية غير مكتملة، تسمّرتُ قليلًا أمام رسمة بالونٍ أحمر منقوش يحملهُ طفلٌ بيدٍ واحدة.

رُحت أقرأُ أبيات الشّعر بصوتٍ مسموع:

رُزقتُ بالقلب العنيد،

وفيهِ العلةُ والأسئلة.

وما الموتُ إلا طريقٌ جديد،

وقيدُ الحياةِ هو السَّلسَلة.

كانت الصفحة التالية مقطوعًا طرفها، وممتلئة برسومٍ كالورود والفراشات، حديقةٌ متكاملة، وفي وسطها رأيتُ كلمةً يُمكن تبيّنها بصعوبة، «كارما»، تأمّلتُ الكلمة قليلًا، ومررتُ بيدي فوقَ الرسوم حولها.

«كارما»، ذاكَ كانَ الاسم الذي كُنت قد اتفقتُ يومًا مع خالد أن يكونَ اسم طفلتنا الأولى.

في ظهر الورقة كُتِبَت كلماتٌ معدودة:

(الآنَ يا عزيزتي لن يوجِعَك ما يوجعنا، الآن حقّت لكِ السعادةُ الأبديّة، وحقّت لكِ السّكينة، لأنّك جميلة، ولأنّكِ صافية، ولأنّكِ عالية، ولأنّكِ أنتِ)

عدّةُ صفحاتٍ فارغة، ثُمّ تواريخ بلا عناوين.

وكانَ آخرُها.

١٣ يناير ٢٠٠٥ وكُتِبَ بجانبه (كُلُّ الأشياءِ فانية، كُل فتياتِكَ راحلات، وهيَ أيضًا)

ذاكَ تاريخٌ لم أستطع نسيانهُ قط، ١٣ يناير ٢٠٠٥ هو يومُ الحادث.

الحادث الذي غيّر كُل شيء، وعبَث بكياني نفسه.

في الصفحةِ الأخيرة، كان هناكَ ما يُشبّهُ الرسالة والتي شرعتُ أقرأُ كلماتها المُنمّقة بصوتٍ مسموع.

(حبيبتي،

حدودُكِ أطرافُ الكونِ ومسكَنُكِ قلب السماء، فاغزلي سحاباتك الخاصّة، واصنعي منها بيوتًا وشوارع ملء المدى، ثُمّ سيري بخفّةِ الطيورِ وقفزِ الغزالات فوقها، تاركةً خلفَكِ أثرًا من نورٍ ورنّة خُلخالٍ تتكرّرُ في الأصداءِ كأغنيةٍ حالمة.

يومًا سيقولُونَ مرّ غزالٌ منتشٍ من هُنا، سيقولونَ إنهُ كانَ «يرنو بدلالٍ فيُثيرُ الشُّهُبَ». سيرَونَ الأثرَ الباقي من بعدِك، وسيسمعونَ

أغنيتِكِ القادمة من السّماءِ من حيثُ لا تصلُ أيديهم ولكنّ آذانهُم قطعًا لن تُخطِئها، لأنّها لا تُشبهُ أحدًا سواكِ، وهُم رغم كُلّ شيءٍ يعرفونَك، ويعرفون ألحانَكِ، لأنّ مثلها هو ما يعلقُ بالذّاكرة، هوَ ما يُطبَعُ كقُبلةٍ فوقَ قلبٍ لا تمنعُ الضّلوع عنهُ القُبَل.

دعي كُل ذلك واستديري، اتركي لهُم قطعَ السحاب البنفسجيّ المغزولةَ ليقتاتوا منها إلى أن تعودي إليْهم من جديدٍ بالمدد.

اترُكي فوقَ كُل صخرةٍ بذرةً واحدة وارويها بقطرتيْنِ من النّدى، النّدى الذي يأتيكِ كُل صباحٍ ليروي زهورَ قلبِك المتفتّحة. واترُكيها، اتركي أرضَ الصّخورِ من الزّمنِ أعوامًا، اترُكيها بكُل ما فيها من بوارٍ وجفافٍ بعد أن وضعتِ أثرَكِ الخالد، دعيها لتُزهر وتؤتي ثمارها الناضجات، ثُمّ عودي واقطفي، من بينِ الصّخرِ شُجيراتٍ وورداً وثمارًا وطيورًا بيضاءَ ذواتَ أجنحةٍ.

اللافندرُ لأجلِكَ ينبُت، أنتِ فقط من تعرفينَ صوتَ اللافندر، إذْ إنهُ لا يهمسُ لأحدٍ سواكِ، منهُ تنسجينَ سحاباتك البنفسجيّة، وتغزلينَ الحُبّ والراحةَ ومن همساته تصنعينَ الأغنيات.

أثرُكِ ليسَ طفيفًا كما تظُنّين، الخفّةُ لا تعني الضّعف، اللون الهادئُ ليسَ باهتًا والرّوحُ الشفّافة ليست غيرَ محسوسة.

أنتِ هُنا الآن، وهنا بعدَ الرّحيل، وهُنا كُل وقت. أنتِ هُنا برنّة

الخُلخالِ وقطرة النّدى وقطع البلّور، وذواتِ الأجنحة البيضاءِ، واللافندر المسحور.

أنتِ لستِ وحيدة ولن تكوني كذلك أبدًا، فالوِحدةُ لا تقدرُ على قلبِك، ولا تقدرُ على روحِك، الوحدة لن تتآكَلَك، ولن تفتِكَ بحدائقك ولن تُذبّلَ زهورك السحرية.)

كانت الرسالةُ مختومةً بكلمة حبيبُكِ، لكنّ طرفَ الورقةِ كان مقطوعًا فلم أتبيّن اسم صاحبها.

سرَت رعشةٌ باردة في جسدي وسمعتُ صوتَ خطواتٍ بعيدة، أغلقتُ الكتاب وأعدتهُ إلى مكانه بسرعة.

مررتُ بعيني سريعًا على عناوين الكتبِ المرصوصة، بعضها كان يحملُ أسماء أشخاصٍ أعرفهم، كنت لسببٍ ما أبحثُ عن اسمي الذي لم أجدهُ في النهاية.

نظرتُ من أعلى السّلم وكانَ الصوتُ قد اختفى، حدثَ تغييرٌ مفاجئٌ في الإضاءة، وجدتُ بعدها الممرضة تنظرُ إلي بابتسامةٍ غير مفهومة، سألتها عن الوقت وأخبرَتني أنها الخامسة مساءً.

كانت عودتي سلِسة بألمٍ خفيفٍ هذه المرّة، يبدو أنّ روحَ عبد الرحمن التي حضرت إلى عالمي هذه المرّة جعلتهُ أكثر خفّة وأقلّ وجعًا.

قرّرتُ التسلّل إلى غُرفة عبد الرحمن، فانتظرتُ ذهاب الممرضة، وتسلّلتُ عبر الممرات مستندةً إلى الحوائط.

صُداعٌ يفتُك بنواحي رأسي ويكادُ يُسقطني عدّة مرات.

نظرتُ عبر النافذة الزجاجية للباب لأتأكّد أن عبد الرحمن وحدهُ في سريره. دخلتُ إلى الغرفة مغلقةً الباب خلفي، وتنبّه هو لصوت إغلاق الباب فاستيقظ. بادرني بالسؤال:

ـ عالية؟.. اتفضّلي.

دونَ تفكيرٍ ردّدت:

ـ رُزقتُ بالقلب العنيد،

وفيهِ العلةُ والأسئلة.

وما الموتُ إلا طريقٌ جديد،

وقيدُ الحياةِ هو السَّلسَلة.

اعتدلَ في جلسته وظهرت على وجهه علاماتُ دهشةٍ ممزوجةٍ بشيءٍ من الخوف، لكنّهُ لم ينطق وظلّ متسمّرًا ينظرُ إليّ في انتظارِ الخطوة القادمة. ورحتُ أنا أدورُ في حلقاتٍ مُفرغةٍ في الغرفة وأنا أردّدُ الأبيات مجددًا.

حتى أوقفني.

ـ عالية انتِ سمعتي الكلام ده فين؟ أنا قولتهولك؟

أنكرتُ بإشارةٍ من رأسي دونَ أن أنطق، وأنا أنظُر إليه في انتظارِ تفسيرٍ وإجابة سؤالٍ لم أطرحه قط.

ظلَّ صامتًا ينظرُ إليّ قليلًا، ثُمّ أخبرني أنهُ ليس من المفترض أن أحفظ تلك الأبيات، وسألني تكرارًا عن مصدرها. لم يجد مني إجابةً شافية. كنت كمن فقد النّطق أو لُجِمَ لسانه. وبعدَ صمتٍ طويلٍ ونظراتٍ متبادلةٍمن كلينا، سألته:

ـ انتَ اللي كاتبهم؟

ـ في مذكّراتي الخاصة، اللي ماحدّش شافها يا عالية، ماحدّش. (قالها وهو ينظرُ إليّ نظرةَ تحدٍّ وتساؤل.)

رحتُ أصِف الشارع الذي كانت تطلُّ عليه النافذة، شكل البنايات، ارتفاعها، اتساعُ الشارع، السيارات، المحلات، الكُشك على ناصيةِ الشارع، بائعُ الخُردة، محل العصير.

كُنت أستفيضُ في الوصف وحدقةُ عينه تزدادُ اتساعًا. وكانت تلك هي اللحظة ذاتها التي قررتُ فيها أن أهرُب عائدةً إلى غرفتي تاركةً عبد الرحمن غارقًا في التساؤلات.

لم أسألهُ عن كارما، ولا عن الطفل بيدٍ واحدة، ولا عن السجادة الحمراء أو الرسالة الختامية، كانت دهشته كافيةً جدًا لأعلم أن خطأً ما يحدُث.

عُدتُ إلى غُرفتي أحملُ الثّقل الناجِمَ عن تساؤلاتي المُبهمة، كانَ السوادُ

يعصفُ برأسي، لا مجالَ للهدوء. دخلتُ إلى غُرفتي لأجدَ أمي تجلسُ على السريرِ في مُقابلةِ إحدى قريباتنا والتي كانت تجلسُ على الكُرسي المجاور. لم أُلقِ التحيّة واتّجهتُ مباشرةً نحو باب الحمّام، فبادرتني أمي:

ـ إيه يا عالية؟.. كنتِ فين؟

ـ كُنت بازور حد. (قُلتها ولم أترُكْ فرصةً للتعليق ودخلتُ الحمّام متحاشيةً نظراتهم وأغلقتُ الباب من خلفي)

جذبتُ الكرسيّ من رُكن الحمّام، ووضعتهُ أمام الحوض في مواجهةِ المرآة.

أحيانًا، قد لا تجِدُ حلًّا لكل أفكارِكَ السوداء سوى أن تتآلف معها.

أن تجلِسَ أمام المرآةِ، تُبعثرُ شعرَك، تخلَعُ أقنعتكَ الزائفة، وتلقي بكُل ما في رأسِكَ من أفكارٍ أمامك، وتبدأَ في ترتيبها، قطعةً قطعة، تُلصِقُ القطع بعضها ببعضٍ بإحكام، وبدقّة.

كنتُ أنظرُ إلى وجهي في المرآةِ من آنٍ إلى آخر، لأتأكّد أن ملامحي ما زالت في مكانها، وأنّني لا أتلاشى، وأنّ السواد، لم يتآكل البقيّة الباقية مني بعد.

تأمّلْت الجسدَ الذي بنيتهُ بأفكاري وهو يكبُر أمامي، يكبُر بيديْ.

أصابعِي تكتسبُ الآنَ بضعَة ندوبٍ جديدة من أثرِ أفكارِي الحادّةِ الجارحة. ندوبُ العام الماضي لم تختفِ كُلّها بعد، لكنّها التأمت ولم تعُد تؤلمني. أما تلكَ الجديدة فإنها الآنَ طازجةً، تُلِحُّ عليّ بالألمِ وبالأسئلة.

الآن يمثُلُ أمامي وحش أفكاري شامخاً، يُلقي بظلّه نحوي وبصورتهِ نحوَ المرآة. نُسخةٌ مني ولكنّها متّشحةٌ بالسواد. ستُرافقُني تلكَ النُّسخة المشوّهة إلى أن أنجح في التخلُّصِ منها كما تخلّصتُ من مثيلاتها من قبل، فتتلاشى كُل أفكاري السوداء دُفعةً واحدة.

أفقتُ على طرَقاتِ أمي على الباب فأعدتُ الكُرسي إلى مكانه وخرجتُ إليها وكانت السيدةُ التي رأيتُها قبل دخولي قد غادرت.

شرعت أمي في الأسئلة فاستلقيتُ على السرير ومددتُ يدي إلى المصباح المجاور واستدرتُ لأنظُرَ إلى الحائط وأُغمِض عيني في إشارةٍ إلى أنّ يومي انتهى الآن مما دفعَ أمي إلى إطفاءِ لمبة النيون المُزعجة وترك الغرفة.

(٦)

فتحتُ عيني إلى سماءٍ مُلبّدةٍ بالغيوم وتُنبئُ بالمطر اليوم. ولسببٍ ما، ذاكَ هو طقسي المُفضّل، الشتاءُ الخريفيّ.

سحبتُ كوفيّتي من طرف السرير، ووضعتُها فوقَ كتفي، وضغطتُ على زر نداءِ الممرضة التي تأخّرت بِضعَ دقائق قبلَ أن تظهر أخيرًا.

كانت ممرضة قليلةَ الكلامِ لدرجة أنني لم أهتم أن أعرف اسمها، استكمالًا لحالة التجاهُل وفُقدان الاهتمام بما يحدُثُ حولي مؤخرًا، إذ يكفيني ما يحدُثُ داخلَ رأسي.

بعدَ أن سألتُها عن الأدوية، وعن الطبيب، وعن الزيارة، وعن أمي، أشحتُ برأسي إلى النافذة قبل أن تُغادر.

الباحةُ الخارجية كانت على غيرِ العادة هادئةً كالموت، رُبّما لأنهُ نهارُ الجمعة، والجو غائمٌ وعاصف على عكس مناخ هذا التوقيت.

أنا لا أُحِبُّ الصّمت، الصّمتُ يفتحُ الفرصة والبابَ على مصراعيه لكُل وحوش الخيالِ والذّاكرة لتفترسَ أعصابي بضراوة.

المدينةُ المهجورةُ الميّتة هي أسوأ كوابيسي ومخاوفي، أن أجِدَ نفسي وحيدةً وسطَ بناياتٍ شاهقة لا يسكُنها أحد. لا تُخيفني حقولُ البنفسج، ولا المعارك الضارية، ولا القُضبان، ولا الوحوش، كُل ذلكَ لا يُخيفني، حتى إن كنتُ وحدي، لكنّي أخافُ الخواء.

رُغمَ خوفي الشديد من الوحدة، إلا أنني أعرفُ أنني لم أعُد أحتملُ ضغط الواقع، لذا اخترتُ منذُ ما يُقاربُ نصف العام أن أمشي على الأرضِ هونًا، أن لا يزيدَ أثري فيمن حولي على رقّة جناحِ فراشةٍ لدى خروجها من الشرنقة، خفيفًا لطيفًا، وزائلًا، لا أُصدِرُ الكثيرَ من الضجيج، أثرًا لا يراهُ إلّا من يبحثُ عنه.

اخترتُ أن أنزوي إلى عالمٍ يرونهُ وهمًا وخيالًا، وأرى فيهِ كُل الحقيقة وقلبها، لذا أصيرُ وحدي الآن.

زياراتُ نور قلّت للغاية، رُبّما لأنني لم أعُد أُحادثُها، ورُبّما لأنّ صمتي في حضورها صارَ لا يُحتمل، وآدم لم يظهر منذُ المرّة الأخيرة، أما عبد الرحمن فأظُنُّ أنّ زيارتي الأخيرة كانت كافيةً لزرع خوفٍ طبيعيٍّ مني ومن غرابتي في داخله، حتى الغريب الذي لا يعرفُني ضاق بي ذرعًا.

رُغم مشاعري التي تطوّرت تجاه عبد الرحمن بفِعلِ الظروف، لكنّهُ في النهايةِ غريب، وليسَ مُجبرًا على احتمال كُل هذا الشطط والجنون.

رفعتُ رأسي إلى البالون المتراخي وابتسمت، تذكّرتُ كم كانَ عبد الرحمن مُتفهّمًا لجنوني قدر استطاعته، حينَ عجزَ عن ذلكَ الأقربون. لا أستطيعُ لومهُ الآن، هو الغريبُ العابر الذي رأى فيَّ جمالًا لم أُدركهُ ولم يُدركهُ من حولي، رُغم أنّي لم أُبدِ لهُ سوى جنونٍ مُستعرٍ.

الشُّكرُ موصولٌ لأمثالهِ من الغرباء، على ضفافٍ أخرى، أولئكَ الذينَ يعلمونَ أنّك لستَ قدّيسًا، وأن بكَ ما بغيركَ من عظامِ الشّر والأنانية والقُبح والشّطط والجنون مثلنا جميعًا، وإن كانوا لا يعلمونَ مكمنها، ومع ذلكَ فإنهُم يُصرُّون على رؤيةِ الخيْر، الخير فقط، وتنبيهِكَ إليه، الذينَ يُضيؤونَ لكَ فلاشاتٍ بيضاء على بعض الجمال الذي تتعمّدُ دفنهُ فيكَ، اعتقادًا أو يقينًا منكَ أنّكَ لا تستحقُّه.

الشُّكرُ موصولٌ لأجلِ احتمالهم ما هُم ليسوا مطالبينَ باحتماله، ولأجلِ شفافيتهم التي تُلامسُ جراحَ الرّوح، قد لا تُطيّبُها لكنّها تنثُرُ فوقها بلسمَ شفاءٍ قد يؤتي طيبَهُ يومًا ما.

اليومُ هادئ، هادئ بشكلٍ مُريب، حتى أمّي لا أسمَعُ لها صوتًا ولا أعرفُ أينَ اختفت، وأبي بالتأكيدِ مشغولٌ في عملِهِ كالعادة.

لذا أُجبِرتُ على البقاءِ وحدي اليوم، إلى أن يظهَر ما يكسِرُ ذلك.

صرتُ أخافُ الوحدةَ أكثر من أيْ وقتٍ سبَق. أصبحتُ أخافُ ذاتي، وخيالي الذي كانَ يومًا مهربي الوحيد.

مددتُ يدي إلى صندوق موسيقى أهداهُ لي أحدُ الأصدقاء في زيارةٍ لا أذكُرُ عنها شيئًا، لكنّ الصندوقَ هُنا على أيْ حال.

فتحتهُ بهدوء لتنطلقَ منهُ الموسيقى المُنضبطة.

كُل من يعرفُني يعرفُ هوَسي بجَمع صناديقِ الموسيقى، لكن أحدًا لا يعرفُ سرّ ولَعي بهم.

أنا مُقتنعةٌ أنني أُشبهُ راقصة الصندوق ذات الفستان الأبيض، لا تكُفُّ عن الرّقص، وتدورُ في حلقاتٍ مُفرغةٍ طيلة الوقت، تتغيّرُ الموسيقى من حولها، وهي لا تكفُ عن الدوران، وكأنها لا تسمعُ الدنيا من حولها، وكأنّها لا تسكُنُ عالمنا.

أتساءلُ دائمًا عن اللحظةِ التي سيُنهكُها فيها التّعب، عن السقوط المُفاجئ، عن اختلال التوازن وخوارِ القُوى، أتساءلُ عن الاستنزاف.

كُنتُ شاردةً تمامًا في الحركة الدورانيّة للراقصة، وإذ كانت تلكَ هي اللحظات المناسبة لظهورِ فراشتي الجامحة، فإنّي هذه المرّة كنتُ في انتظارها، الوحدةُ كانت تفتكُ بما تبقّى من وعيي على أي حال.

خرجَت الفراشةُ من داخلِ الصندوقِ أمامي ناثرةً من ورائها طيوفًا حمراء وأرجوانيّة، وكأنّ خيوطها الملوّنةَ تذوبُ وتترُك أثرها في الهواء، رفعتُ رأسي أُتابعُها في انتظار الخطوة القادمة.

اهتزّت الغُرفةُ من حولي قليلًا وكأنّ الحوائط تتحرّكُ من مكانها، أو أنّ إطاراتِ الأشياءِ تُغادرُها.

صمتٌ مُطبِق، والكابوسُ الأسوأ يتجسّدُ أمامي بعُنف.

مدينةٌ خاوية من كُل أشكال الحياة، أكادُ أسمعُ دقّاتِ قلبي كخبَطاتٍ

عاليةٍ تترُك وراءها صدى صوتٍ يتردّدُ في الأجواء، وهيَ تتسارعُ لتُسابقَ دقّات ساعةِ يدي، ووسطَ هذا الصّمت المُطبِق كانَ الصوتُ مُزعِجًا لدرجةٍ مُوَتّرة.

لذا كانَ أوّلُ ما فعلتُه هو نزعَ ساعتي، إذ لا يُمكنني نزعَ قلبي من مكانه. كانت الساعةُ تُشيرُ إلى الثانية عشرة والنصف قبلَ أن أنزعها مُباشرةً.

بدأتُ أدورُ في مكاني في مُحاولةٍ لتفحُّصِ المكان من حولي، شوارع لا أعرفها، مدينة غريبة وصامتة كالقبر.

رُغم شعوري الطاغي أن محاولات الهربِ من هُنا ستبوءُ بالفشل، إذ إنني كنتُ أعتقدُ أنني ما زلتُ داخل عقلي، ولا أحدَ يهرُبُ من عقله، إلا أنهُ لا ضيْرَ من المحاولة.

اخترتُ اتجاهًا ورُحتُ أركض في الشارع الذي بدا بلا نهاية، بعدَ أن أُنهِكتُ تمامًا وانقطعت أنفاسي، توقّفتُ أمام إحدى البنايات، واتّخذتُ طريقي إلى الداخل، صعدتُ عدّة درجات ووقفتُ أمام المِصعد وضغطتُ زر الاستدعاء، وعلى غيرِ المتوقّع، كانَ المصعَدُ يعمل، لكنّي فقط لم أرَ أن فكرةَ ركوب المصعد في مدينةٍ مهجورةٍ من البشر أمرٌ سديدٌ، وتضخّم خوفي من المصاعد ليتغلّب عليّ، أنا لا أُريدُ الموتَ ذعرًا وحدي هُنا على أيْ حال.

لذا كانت درجاتُ السلّم تبدو حلًا أفضل، صعدتُ الدور تلو الآخر، توقّفتُ عِدّة مراتٍ في الطريق لالتقاط أنفاسي المقطوعة، إلى أن

وصلت إلى سطح البناية. كانَ المشهدُ من الأعلى مهيبًا ومُرعبًا، بنايات مُتفاوتة الأحجام، كُلّها خاوية، المدينة كانت تبدو وكأنّها أُخليَت من ساكنيها للتو بسبب كارثةٍ طبيعيةٍ آتية، أو حربٍ تحدُثُ في الجوار. موتٌ تام، وكأنّ كُل شيءٍ قد توقّفَ فجأة، رُبّما رأيتُ هذا المشهد في أفلامٍ سينمائيةٍ مُختلفة، لكنّهُ لم يبدُ بهذا الرُّعب على الشاشة، رُبّما الوِحدةُ وحدها كانت كفيلةً بجعل كُل شيءٍ مُرعِبًا.

كُلّنا نحتاجُ إلى رفيقٍ ما عندَ نهايةِ العالم وغوصهِ في الصّمت الأخير، فنهايةُ العالم لا تكونُ على نفس الدرجة من الفزع في وجودِ الرُّفقاء.

لأوّل مرّةٍ منذُ رحيلي الأول إلى عالمي وجدتُ نفسي أتساءلُ بهذه السرعة متى سأعود وكيف؟ لأول مرّةٍ أبحثُ عن بشرٍ وإن كُنتُ لا أعرفهم!

الناسُ زحامٌ وضجيج لكنّهم ونَسٌ يمنعُ الوحدةَ من التهامنا أحياء في المُدن الخاوية.

نزلتُ الأدوار التي صعدتُها إلى أن عُدتُ إلى الشارع الخاوي، وقد كانت الشّمسُ مُشارفةً على الغروب، وأدركتُ لحظتها أن تلكَ في حد ذاتها كارثة، السماءُ كانت تميلُ إلى الظُلمةِ شيئًا فشيئًا، أنا لم أرَ ليلًا في عوالمي قط، كانت الشّمسُ عُنصرًا أساسيًا في مختلفِ رؤاي، والآن تخونني الشمس للمرّة الأولى وتوشِكُ على الزوال. حاولتُ البحث عن أي علامات، أي شيءٍ يدُلُّني على طريقٍ للعودةِ، بلا جدوى.

يئستُ وأرهقني التعبُ في النهاية، فاخترتُ أحدَ البيوتِ الصغيرة

ودخلتُ إلى حديقته، حاولتُ فتحَ البابِ فانفتح بسهولة، كانَ منزلًا قديمًا ممتلئًا بالتُحَف في كُل مكان، صعدتُ الدرجات إلى إحدى الغُرف، وكانت تبدو كغُرفةِ فتاةٍ خرجَت وتركَتها للتو، صعدتُ إلى السرير وتكوّرتُ في وضعِ الجنين، مُحتضنةً دُبًا محشوًا كان في رُكنِ السرير. دفنتُ رأسي في فراءِ الدُب، وأغمضتُ عيني بعُنف، كانَ جُلّ ما أرجوه الآن أن يكونَ ذاكَ كابوسًا سخيفًا سينتهي سريعًا، رجوتُ فقط لو أنامُ الآنَ هُنا وأستيقظُ في سريرِ المستشفى.

كُل شيءٍ كانَ يُخبرُني أن الكابوس لن ينتهي سريعًا، هبوطُ الليلِ كانَ مُنذرًا بالخوف.

لا أُريدُ أن ينتهي العالم الآن، وأنا وحيدة في مدينةٍ مهجورة لا أعرفها ولا يؤنسُني فيها سوى دبٍّ محشو في غُرفةِ فتاةٍ ما لا أعرفها.

كانَ سعيي كُلّه في الشهور الأخيرة مُنصّبًا على الهربِ من الجميع، من عائلتي، ومن أصدقائي، ومن آدم، وعلى الخصوص آدم، وحتى من الغُرباء الذينَ حاولوا الاقترابَ عبثًا كعبد الرحمن.

وها أنا للمرّةِ الأولى، وأنا أمام ما يُشبهُ نهاية العالم أو نهايتي، أتمنّى فقط لو أنّ آدم على الأخص كانَ هُنا الآن.

كانت صورته الهادئة هي ما اخترتُ أن أراه وأنا أحاولُ الاستسلام للنوم أو للموت أو النهاية. كنتُ أحاول تهدئةَ خوفي وتشتيته، فحادثتُ آدم غير الموجودِ هُنا.

ننامُ الليلةَ هادئين، ونستكملُ غدًا سويًّا منذُ الصباح الباكر مشاهدة نهاية العالم ببُطء وغوصه في الصّمت الأبدي المُطبِق. على مائدةِ إفطارٍ فرنسي في مقهى يُطلُّ على حديقة، أو في الصفوف الأخيرةِ من قاعة السينما، أو ربّما فقط من على أحدِ أرصفةِ شارعنا المُفضّل، بجوار أحدِ المخابز، فرائحةُ الخُبز مُحبّبةٌ مع رائحة الصّمت والموت واختفاءِ البشر، كما أنني أحتاجُ إلى بعض الدفء في أيامنا الباردة هذه، ومعطفي الأحمرُ لا يفي بالغرض ولا يصلُ إلى رعشةِ قلبي، لأجلِ ذلك أحتاجُ إليك، ولأن نهاية العالم ستكونُ مُخيفةً دونك.

فتحتُ عيني ولم أكُن أعرف كم من الوقتِ مرّ تحديدًا، ولم أكُن بينَ جُدرانِ المستشفى، وكانَ الدُبّ المحشو ما زال مُتمسّكًا بي، أو أنا متمسّكةٌ به، فكلانا وحيدٌ هنا. هوَ تركتهُ صاحبته، وأنا تركتُ أصحابي.

كانت الغُرفة أكثرَ ظُلمة، ولم أقوَ على حَمل نفسي لمُغادرة تلكَ البُقعةِ المستطيلة، لا يوجدُ دافعٌ للاستيقاظ على أي حال وأنا أعلمُ أن المجهول ما زالَ يُحيطُ بي من كُل اتجاه.

كررتُ النومَ والاستيقاظ عِدّة مرات، وفي كُل مرةٍ تخيبُ أمنيتي بالعودةِ إلى جُدرانِ المستشفى.

في المرّةِ الرابعة أو رُبّما الخامسة، كانَ بعضُ النور قد تسلّل إلى الغُرفة، وهو ما بدا الشروقَ الأوّل في هذا المكانِ الكئيب.

كانَ الوقتُ والأجواء وكُل شيءٍ مناسبًا جدًا للبُكاء، أو لنقُل للنحيب، لذا وجدتُ أنهُ من المناسبِ جدًا أن أبدأ الآن،فقتلتُ نفسي بُكاءً، أظُن

أنهُ استمرّ لساعات، والبُكاءُ ليسَ مُريحًا كما يقولون. في العالم الذي من المُفترضِ أنني لا أعرفُ فيهِ الوجَع، كانَ قلبي ينخلعُ مع كُل نفس، وكانت رئتايَ تُجاهدان لاستجداءِ الهواء وسطَ تنهّداتي، وتحوّلت عيناي إلى جمرتين من النار، وددتُ لو أستطيعُ انتزاعهم ونقعهم في طبقٍ من الثلج.

كففتُ عن البُكاء، ليسَ بدافع اللاجدوى، وإنما بدافع الإنهاك المُفرِط.

ترجّلتُ من السريرِ أخيرًا بعدَ أن أيقنتُ أن النوم لن يكونَ كافيًا للهروب من هذا السّجن.

بحثتُ في أرجاءِ الغُرفةِ عن مرآة، لسببٍ لا أعرفه أردتُ أن أتأكّد من ملامحي، كانَ كُلُّ شيءٍ في مكانه، وشعري قصيرٌ كما هو لا يلامسُ كتفي.

في لمسةٍ سينمائيةٍ غيرِ مفهومة، فتحتُ أحد الأدراج بحثًا عن طوقٍ ما، فوجدتُ طوقًا ذهبيًا يحملُ في جانبه فراشةً وحيدة فقررتُ سرقتهُ أو استعارتهُ ولملمتُ بهِ خُصلات شعري المتساقطة على وجهي الباكي.

قررتُ مُغادرةَ المنزل. المدينةُ واسعة، لا بُدّ من وجودِ شيءٍ يدُلّني على أي طريقٍ يهديني للعودة.

في مدينةٍ خاليةٍ من البشر، لا يوجدُ من تسأله، ولا من يدُلّك على طريق، ولا من يوصِلُكَ إلى وجهة.

فتّشتُ أرجاءَ المنزل قبل المغادرة، ولم أجِد شيئًا ذا قيمة، كانَ البيتُ ممتلئًا بالتُحف، لكن كُل الأشياءِ ذاتَ القيمة الماديّة لن تُفيدك في مدينةٍ

لا بشرَ فيها. صدّمني إدراكُ ذلك الآن، لا شيءٍ لهُ قيمة بغيرِ وجودِ الآخرين.

كُنتُ أدقّقُ النظرَ إلى أيْ شيءٍ يحملُ شكلَ الفراشة، على أملِ أن تتحرك فيحدُث أيُّ شيء، بعدَ أن تخلّت عني فراشتي واختفت تمامًا.

بجانب بابِ المنزل وجدتُ طاولةً صغيرة تحملُ كأسًا منقوشًا بداخله ميداليةٌ فضيّة منقوشٌ عليها عبارة «عيونُكِ قلبُ الحياة» بها عدّة مفاتيح كانَ أحدها مفتاحُ سيارة، أمسكتُ بِهِ وأخذتُ أُقلّبهُ بينَ يدي، سوفَ أخرُج من هذا الباب إلى مدينةٍ خاوية لأبحث عن شيءٍ لا أعلمُ ما هو، وقد يطولُ البحث، وقد يطولُ السيْر، لكنّي لم ألَمس سيّارةً منذُ الحادث!

بعدَ صراعٍ طويلٍ بين مخاوفي من السيْرِ في مدينةٍ خاوية على رجلي وحدي، وبينَ فوبيا القيادة التي تولّدت عندي منذُ الحادث، قررتُ في النهاية التغلُّب على الفوبيا أو على الأقل المحاولة.

أخذتُ المفاتيح وخرجت. وأمامَ المنزل ضغطتُ على زر فتح السيارة في انتظارِ استجابةِ إحدى السيارات المصفوفةِ أمامَ الباب، وهو ما قد كان باستجابةِ سيارةٍ سوداء ذات دفعٍ رُباعي مرتفعة.

ابتسمتُ للمرّةِ الأولى منذُ مجيئي إلى هُنا، إذ إن سيارةَ أحلامي دائمًا كانت سوداءَ مرتفعة، مما يزيدُ من تأكُّدي أنني ما زلتُ في أرجاءِ عقلي بشكلٍ أو بآخر، لكنّي فقط محبوسةٌ هنا الآن بلا عودةٍ قريبة على ما يبدو.

كررتُ المحاولة عِدّة مرات قبل أن أنجحَ في تحريكِ السيارة من مكانها، صعدتُ عدّة أرصفة وصدمتُ بضعة حواجز قبلَ أن أُسيْطر على الأمور. لا أظُنُّ أنني نسيتُ كيفية قيادة السيارات، لكن الخوفَ كانَ كفيلًا بمحو ذاكرتي كاملةً وليسَ فقط مهارة القيادة.

لماذا كُلُّ شيءٍ حقيقيٌّ إلى هذه الدرجة؟! عالمي كانَ دائمًا حالمًا وخياليًا، وذاكَ ما كان يدفعني إلى الهروبِ إليه، لأنّ الواقع ضاغطٌ وقاسٍ ومُريع.

كنتُ أهرُب إلى القصور التي تُحيطها حدائقُ فقط لأنني أكرهُ المُدُن، كنت أهرُبُ من مدينتي إلى الحقول المتراميةِ الأطراف، فما الذي أوصلني الآن إلى هنا؟!

قُدتُ السيارة عبرَ شوارعَ لا أعرفُها، رأيتُ أماكن أشاهدها للمرّةِ الأولى، استمرّت رحلتي ساعاتٍ لم أُفلِح في عدّها، كل الساعات في هذه المدينةِ كلها تُشيرُ إلي الثانيةَ عشرة والنّصف ولا تتحرّكُ مُطلقًا.

بدأتُ أُميِّزُ بعض الشوارع، بعد قيادةٍ طويلة، لكنني كُنتُ قد أُنهِكت تمامًا، والشّمسُ قد شارفت على المغيب، ويبدو أن خوفي من الظلام انتقلَ معي من عالم الواقع إلى هنا إضافةً إلى أنهُ ليس مضمونًا ما يمكنُ أن أراهُ في مدينةٍ خاويةٍ ومُظلمة، لذا كان من الأفضل البحثُ عن مكانٍ للمبيت.

كُنتُ قد يئستُ من فكرةِ النوم والاستيقاظ في مكانٍ آخر، إذ إن كُل شيءٍ هنا بدا ملموسًا وحقيقيًا لدرجةٍ صارت تُصعّبُ من فكرة تلاشيه هكذا فجأة.

وقبلَ الاستقرار على منزل، وقعت عيني على شارعٍ أعرفُه، الشارع ذاته الذي رأيتُه في إحدى رحلاتي. فركنتُ السيارة في أحد الجوانب ونزلتُ أتجوّلُ في الشارع إلى أن رأيتُ النافذة الزجاجية المثلّثة في أحد أدوار البنايات، دخلتُ إلى المبنى وصعدتُ حتى صرتُ في الدور الثالث، أدرتُ مقبضَ باب الشقّة فانفتحت.

كانت الشقّة مكوّنة من طابقين، وبدَت لي مألوفةً للغاية. صعدتُ مباشرةً إلى المكتبة والتي رأيتُها في نهايةِ السلّم. وكانت السجادةُ الحمراء تتوسّط الأرضية الخشبية كما كانت في عالمي تمامًا.

بدأتُ أبحث وسط الكتُب على أمل أن أجد الكتاب ذاته ذا الغلاف الأزرق ولكنّي لم أجده.

أخذتُ جولةً سريعةً حتى وصلتُ إلى غُرفةٍ مغلقة ذاتِ بابٍ أسود عليها بضعُة ملصقاتٍ كان منها عبارة «ممنوع الإزعاج»، ففتحتُها بهدوء وأطللتُ برأسي إلى الداخل في حذرٍ.

كانت غُرفة شاب، كُلُّ شيءٍ كان مُبعثرًا في غيرِ مكانه، وكانت تتكوّنُ من سريرٍ ودولابٍ مفتوحٍ على مصراعيه، ومكتب، وعلى جانب المكتب، وجدتُ بروازًا فضيًّا أعرفه ويحملُ صورة.

أمسكتُ بالبرواز واتّسعت حدقةُ عيني، كانت إحدى صوري القديمة مع خالد. ما علاقةُ خالد بعبد الرحمن؟ ولماذا وجدتُ مذكّرات عبد الرحمن هُنا في المرة الماضية؟

عُدتُ أفتّشُ أرجاءَ الغرفة بحثًا عن علامةٍ أخرى، لم أجِد شيئًا ذا نفع، كنتُ أشُم رائحة خالد في المنزِلِ بأكمله، وكأنهُ قد غادرهُ للتو، لم أحتمل أكثر، فخرجتُ من الغُرفةِ شاردةً حائرة.

كان الضوء المنبعثُ من النوافذ يتناقص، سينزلُ الليل في أي لحظة.

عُدتُ ركضًا إلى السيارة. واتّخذتُ طريقي من جديد للبحث عن مكانٍ مُلائم للمبيت، اخترتُ في النهايةِ منزلًا بدا مألوفًا، بدا مُطمئنًا، وفاجأني أنّي أدركتُ أنّ مصدر الاطمئنان هو أنّ المنزل كانَ يُشبهُ بيتي للغاية، بيتي الذي حاولتُ الهربَ منهُ قدر المستطاع، لأنهُ كانَ واقعيًا كما اعتدتُ أن أقول. والآن صارَ كُل ما يُعيدني أو يُشعرني بالواقع مألوفًا وحميمًا ويبعثُ على الطمأنينةِ والسّلام.

دخلتُ إلى البيت وقد كانَ الجو يزدادُ برودة. كانَ مفتوحًا ككافةِ بيوتِ المدينة، ورُغم أنها مفتوحة طيلة الوقت لكنني لم أشعُر بالرغبة في استكشاف بيوتٍ لا أعرفها ولا حتى على سبيل قضاء الوقت الصامت الفارغ، فالبيوتُ تنقُلُ إليكَ حنينَ أصحابها، ووجعهم، وحياتهم، تنقُلُ إليكَ شيئًا من أرواحهم وتجاربهم، وأنا الآن مُثقلةٌ عن آخري بأرواح من تركتهُم خلفي بلا وداع.

راودتني فكرةُ أنني رُبّما قد مِت، لكنّ هذا لا يُشبهُ الموت، وإن كنتُ لا أعرفُ كيفَ يكونُ الموت بالأساس، ولم أستطع تصديقهُ حتى اليوم.

لكن الفكرةَ لم تتلاشَ تمامًا، أنا في أسوأِ كوابيسي، ربّما يكونُ الموتُ هو تحقّق أسوأ كوابيسك فقط.

لا شيء أسوأ من تجسُّد الكوابيس سوى الموت، فماذا لو كانَ كلاهما يؤدّي إلى الآخر، وأنّ الموت ليس سوى كابوسٍ متجسّدٍ مستمرٍّ بلا نهاية.

حاولتُ طرد الفكرة واتّخذتُ طريقي عبر المنزل الغريب إلى أن وجدتُ سريرًا واسعًا فرميتُ نفسي عليه وتكوّرت في رُكنِهِ أصارعُ الوحدةَ والأفكار.

كنتُ أفتقدُ الكلام، الكلام الذي كُنتُ قد أضربتُ عن مُعظمه في عالم الواقع، فصارَ مَن حولي يُحادثونني وأنا أُجيبهُم صمتًا، الآن أنا أشارفُ على يومي الثالث في مكانٍ لا صوتَ فيهِ ولا همس.

لم أكُن أعلَم حتى إن كانَ في مقدوري الكلامُ هنا، لم أُجرّب ولم أحاول، لم أجِد جدوى من الصُراخ ليرتَد إليّ صدى صوتي كما يحدُثُ في الأفلام عادةً في هذه الظروف لذا لم أُجرّب.

لكن لا ضيرَ من المحاولة، ليسَ الصُراخ، لكنّي قررتُ أن أُجرّبَ الغناء، رُحتُ أردّد إحدى أغاني الطفولة، ومن بعدها إحدى أغاني فيروز. كانَ الصوتُ غريبًا وسطَ هذا الصمت المُطبِق، وكانَ مُرعبًا أيضًا لذا قررتُ العودة لبراثن الصّمت والاستسلام لسطوة النوم.

غدًا يومٌ آخر، غدًا يجبُ أن أجِد طريقًا للعودة، لا بُدّ من وجودِ علامةٍ ما، أنا لا أريدُ البقاءَ هنا، الواقعُ بكُل ثِقَله وحيرته ووجعه، أخف من هذا الصّمت الأسود، الواقعُ أخف من الوِحدة الطويلة، الواقعُ أخف من الكابوس.

عند استيقاظي، كانت كُل عضلاتي وعظامي تنبضُ بالألم إثر القيادة لساعاتٍ طويلة بالأمس، من المُزعِج جدًا ألّا يكونَ هناكَ طريقةٌ لحساب الوقت سوى حركة الشّمس، إذ أن عدّ الساعات شبه مستحيل.

يومٌ جديد في العالم الخاوي، والمهمّة الوحيدة هي البحثُ عن علامةٍ أو إشارةٍ أو طريقٍ يصِلُني مُجددًا بالواقع.

لم أعُد أُحبُّ العُزلة، إذا استطعتُ العودةَ يومًا ما سأقضي أيامًا لا أُطيقُ البقاءَ وحيدةً ولو لدقائق.

العزُلةُ التي كانت هدفي الأول والأخير صارت الآن الشبح الذي يُخيِّم على حياتي إن كان ما زال لي حياة. إذ لم أعُد أعلمُ أأنا حيّةٌ أم ميّتة.

الخيال الذي كانَ المهرب والمفَر صار الآن السّجن المُسوّر الذي لا يحملُ أبوابًا ولا نوافذ، ولا حتى مواقيتَ لاستقبالِ زياراتِ الأحِبّة.

الأحبّة؟

أنا من عجَزت عن إعطاءِ حُبّها لمن حولها، فصارت تنسحبُ من حياتهم تدريجيًا وتنزوي إلى رُكنٍ بعيد، تُصادقُ أفكارها وحدها وتلهثُ خلف راحلٍ تركها وذهب، وترسُم عالمًا خاصًا خاليًا من البشر عداه هو، وإن دُعيَ إليها من تُحب قتلتهُم في خيالاتها، الآن تشتكي الوحدة وتسألُ عن زيارات الأحبّة!

نزلتُ من السرير، الجو اليوم يبدو أبرَد قليلًا من الأمس، أظافري اكتست بلونٍ أزرق خالٍ من الحياة.

خطَرَ في بالي أنني لم أشعُر بأي جوعٍ هنا ثُمّ طردتُ الفكرة استحضارًا لواقع أنني ما زلت في عالمٍ غيرِ حقيقي مهما زادت تفاصيلُه وتشعّبت وبدَت ملموسةً ومحسوسةً. ولا يُمكن أن أستسلم للاقتناع بأن هذا هو واقعي وحقيقتي، كُنتُ مقتنعةً أنّ استسلامي للفكرة يعني أنها لن تزول أبدًا.

ورُغم ذلك فإنّ فكرة اقتناعي بافتراضية هذا العالم ووهميّته بدأت تهتزُّ هي الأخرى.

اتّخذتُ طريقي إلى خارج المنزل المهجورِ من أصحابه.

ركبتُ سيارتي المستعارة السوداء وبدأتُ القيادة عبر الطرُق والشوارع من جديد.

اليوم أنا مُصرّةٌ على إيجادِ ولو تفصيلةٍ واقعيةٍ واحدةٍ أعرفُها. صرتُ أختارُ الشوارع التي تبدو مألوفةً أكثر، علَّ ذلكَ يوصلني لبُقعةٍ غير غريبة.

لعنةُ عدم قُدرتي على حفظ الشوارع واتجاهاتها جعلت عملية إيجاد شارعٍ أعرفه على درجةٍ عاليةٍ من الصّعوبة.

بعدَ ساعاتٍ من الدخول إلى شوارع والخروجِ من أخرى، وجدتُ نفسي أمام كومباوند مكوّنٍ من بناياتٍ متشابهةٍ أعرفُها. أعرفُ هذا المكان، إنهُ يُشبهُ الشارع الذي تسكُنُه نور صديقتي.

دخلتُ بينَ البنايات وعيني تتابعُ أرقام المنازل، إلى أن وصَلت إلى

الرّقم المطلوب «٩ ب» مكتوبة بخطٍ عريضٍ أبيض على لوحةٍ زرقاءَ مؤطّرة.

ترجّلتُ من السيارة، وكان الجوُّ قد ازدادَ بُرودة، ولأول مرة، سمعتُ صوتًا غيرَ صوت أنفاسي في هذا المكان الموحِش. صوتًا شقيًّا ومُحبّبًا.

«عالية، عالية أنا متأكّدة إنك سامعانا، اطلعي بقى كفاية كده»

لم أستطع تمييز مصدر الصوت أو موقعه في البداية، رُبّما من الدور الثالث الذي تسكُنُه نور، لكنّهُ بدا أبعد من ذلك، بدا وكأنّهُ يُحيطُ بي من كُل اتجاه.

اتّخذت طريقي عبرَ السلالم حتى وصلتُ الدور الثالث الذي كانَ مكونًا من شقّةٍ واحدة هي منزلُ نور. طرقتُ الباب عدّة مرات بلا جدوى.

أمسكتُ بالمقبض على استحياءٍ وفتحتُ الباب، أطللتُ برأسي إلى الداخل في حذرٍ كعادتي، وكانَ المكانُ هادئًا كالليلةِ الأولى في المقبرة.

أعرفُ تفاصيلَ هذا المنزل وأحفظُها، وكانَ كُل شيءٍ في مكانه تمامًا. اتّجهتُ مباشرةً إلى غرفةِ نور. كان السريرُ مُبعثرًا كالعادة. نور لا تُرتّبُ سريرها أبدًا.

سمعتُ الصوت مُجددًا. ولأول مرة صرختُ باسم نور عدّة مراتٍ بأعلى ما استطعت، فارتد إليّ صوتي عن الجُدرانِ الباردة.

بينما استمرّت نور في الحديث إليّ. اتّجهتُ إلى الجدار الذي يحملُ صورنا معًا، وأنا أُنصِتُ للصوت.

كانت نور تحكي تفاصيلَ ذكريات الصورِ المُعلّقة، تحكي بصوتٍ هادئٍ وحزين.

نظرتُ عبرَ النافذة فإذا بالسماء مُلبّدةٌ بالغيوم. وصوتُ نور ما زال مستمرًا كالموسيقى التصويرية، ثمّ سمعتُ تنهّداتها وسط البُكاء والذي جعل الكلام مُتقطعًا.

صمتٌ قصير ثُمّ بكاءٌ صاحبهُ أمطارٌ غزيرةٌ ومُرعبة في الخارج.

مصادفة؟.. رُبّما.

أغلقتُ كافّةَ النوافذ واتّخذتُ مكاني فوق سرير نور، تاركةً بابَ الغُرفة مفتوحًا، رُبّما في انتظارِ عودتها.

هدأَ كُل شيءٍ فجأة واختفى صوتُ نور.

نظرتُ عبرَ النافذة فإذا بالمطرِ قد توقّف والسماءُ سوداء لا نجوم ولا غيومَ فيها، والأرضُ جفاف. وكأنّ شيئًا لم يكُن.

جلستُ على حافّة السرير في مُواجهةِ المرآة، وللمرّة الثانية، بكيت. كانَ اختفاءُ صوت نور بمثابةِ فُقدانها تارّةً أخرى. الوجَعُ يتكرّرُ وكأنّها المرة الأولى، وكأنّ الوِحدةَ تُهاجمني للتو.

أربعةُ أيامٍ في العُزلة الإجبارية. كُل شيءٍ هُنا يُجبرُني على الحنينِ إلى الواقع، الواقعُ الذي صرتُ لا أملُك العودةَ إليه.

قررتُ أن أغادرَ بيتَ نور في الصباح الباكر لأستكملَ رِحلتي عبرَ

شوارع الموت والفراغ. استلقيتُ على السرير ممسكةً بإحدى الروايات الرومانسية الأجنبية التي تحتفظُ بها نور في مكتبتها. بدأتُ القراءة ولا أعرفُ متى أدركني النوم.

مع شروق الشمس، أيقظتني ساعتي البيولوجية، والتي صارت توقظُني مع كل شروقٍ للشمس الوهمية لهذا العالم المُفتَعَل.

استعرتُ بعضَ قطع الملابس من دولاب نور، بلوفر قصيرٌ أسود وجينز فاتح، وإحدى حقائبها التي أُحبُّها، ونزعتُ إحدى الصور من الحائط ووضعتُها في الحقيبة.

نظرتُ نظرةً سريعةً إلى المرآة قبلَ أن أنطلِقَ إلى خارج المنزل.

الجوُّ يزدادُ برودة، وأصابعي تزدادُ تيبُّسًا وزُرقة.

قفزتُ إلى السيارة في محاولةٍ لاتّقاء البرد القارس، وانطلقتُ قاصدةً منزلي، إذ صرتُ أعرفُ الشوارعَ الآن. هذه مدينتي لكنّها فقط خاوية، ولأنني وحيدةٌ هنا والشوارع ليسَ بها غيري، وصلتُ في دقائق.

دخلتُ عبرَ البوابةِ الحديديّةِ للبيت إلى الحديقة الداخلية وكان الموتُ يكسو المكان.

صعدتُ الدرجاتِ الثلاث ومددتُ يدي إلى المقبض النُحاسيّ البارد.

سرَت رعشةٌ اختلطت بينَ البرد والخوف والنوستالجيا. وكأنّ شريطَ طفولتي كلها انتقلَ من مقبض الباب إلى رأسي ومرّ أمامي سريعًا.

لسببٍ ما، كانت آمالي عريضةً في أن يكونَ منزلي هو الطريق إلى العودة، وأنني سأجُدُ شيئًا ما هنا. خمسةُ أيامٍ من العُزلة هو أقصى ما يُمكُنني احتمالُه.

دخلتُ إلى المنزل، تجوّلتُ في الرُّدهاتِ أُعيد استكشافها، إلى أن وصلت إلى بابِ غرفتي، الفراشةُ على الباب ما زالت في مكانها. في داخل الغُرفة أيضًا كانت كُل فراشاتِ السّقف والحوائط في مكانها، الفراشاتُ البلاستيكيّةُ لا تُفيد، لا تدُبُّ فيها الحياةُ فتتحرّك وتُعيدُني إلى حياتي.

فتّشتُ الغُرفةَ كاملةً بحثًا عن شيءٍ ما لا أعرفُه، أخرجتُ الصّندوقَ الوردي القديم المُغلق الذي أحتفظُ فيهِ بكُل ما كان يخُصُّ خالد. خطاباتهُ المخطوطةُ بخط اليد، دمىً صغيرةً أهداها إلي في مُناسباتٍ مُختلفة، كُرةُ الثلج ومدينتُها المحبوسة المهجورة الباردة كهذه المدينةِ التي أسكُنُها غصبًا الآن، زجاجةُ عِطرٍ ذهبية، خاتمٌ يحملُ فراشةً فضيّة، قُصاصاتُ ورقٍ مختلفة كُتبت عليها عباراتٌ عديدة.

فتّشتُ الصّندوقَ قطعةً قطعة. وقبلَ أن أُغلقهُ، وقعت عيني على مُذكّرةٍ صغيرةٍ زرقاء، فتحتُها لأجدَ في صفحتها الأولى:

رُزِقتُ بالقلبِ العنيد

وفيهِ العلّةُ والأسئلة

وما الموتُ إلا طريقٌ جديد

وقيدُ الحياةِ هو السّلسَلة.

كانَ الخط هو خط يد خالد، ما زلتُ أستطيعُ تمييزه إلى اليوم، بعضُ الأشياء لا تُمحى من الذاكرة بسهولة.

أغلقتُ المُذكّرةَ بيدٍ مُرتعشة قبلَ أن أُعيدها إلى الصندوق وأغلقه وأعيده حيثُ كان.

أخذتُ أفتّشُ في أغراضِ الغرفة بلا هدفٍ واضح.

شيءٌ ما ينقُص. شيءٌ ما ليسَ موجودًا. صندوقُ الموسيقى الأسود المُذهّب الذي أهداهُ لي آدم السنة الماضية، في ذكرى لقائنا الأوّل، صندوقُ الموسيقى الذي قضيتُ ليالي اكتئابي أسمعُ موسيقاهُ الترنيميّة وأُشاهِدُ راقصتهُ ذات الفُستان الأبيض.

اعتدتُ الاحتفاظَ بهِ على أحدِ الرفوف البيضاء التي تعلو سريري، وكانَ مكانهُ شاغرًا.

بحثتُ عنهُ في كُل بُقعةٍ في الغُرفة، بلا جدوى. فخرجتُ أبحثُ عنهُ في أرجاءِ المنزل، دون فائدة.

عُدتُ إلى الغُرفةِ واتّخذتُ مقعدي على الكُرسي المُزركش في رُكن الغرفة، أُراقبُ السُكونَ والصمت المُطبقِ.

لم أُفلِح كالعادةِ في عد الساعات التي مكثتُها فوق الكُرسي شاردةً في اللاشيء. كُل ما أذكُرهُ أني تنبّهتُ فجأةً إلى صوتِ موسيقى أعرفُها، موسيقى صندوقي المُذهّب.

انتفضتُ من مكاني محاولةً تتبّع الصوت حتى خرجت من بابِ المنزل. كانَ التوقيتُ مُقاربًا للتوقيتِ الذي سمعتُ فيهِ صوتَ نور بالأمس.

جلستُ على الرصيفِ عندَ بوابةِ المنزل أستمعُ إلى الصوت الذي كُنتُ أعرفُ أنني لن أنجح في إيجادِ مصدره. حتى توقّفت الموسيقى وسادَ الصمتُ لثوانٍ، ثمّ سمعتُ صوتَ نور الهادئ وقد ازداد حُزنًا عن الأمس.

«طنط جابتلك الصندوق يا عالية، هي عارفة إنّك بتحبّيه وبتحبّي يبقى جنبك، آدم جه امبارح بس ما رضيش يدخُل، وأنا روّحت امبارح لقيت واحدة من صورنا اللي في الأوضة وقعت ع الأرض، وكُل ما ألزقها تُقَع تاني، الصورة اللي انتِ بتحبّيها، كُنتِ لابسة الفستان الأزرق بتاعك، وأنا كُنت لابسة لِبس وحِش أوي»

انتفضتُ من مكاني وعُدتُ إلى غُرفتي، فتحتُ حقيبةَ نور التي استعرتُها، وأخرجتُ الصورة التي كانت هي نفسَها التي تحدّثت عنها نور.

شيءٌ ما ما زالَ يربِطُني بالواقع، لستُ شبحًا بعد. اختفى الصوتُ من بعدها.

وكانَ الليلُ قد خيّم.

جلستُ فوق سريري ومن جديد، انهارت قوايْ وانخرطتُ في البُكاء كطفلةٍ ضلّت طريقها وضاعت من أمها في السّوق، أريدُ العودة، فقط العودة. لم أعُد أريدُ خيالاتي، أريدُ أمي وأبي ونور وآدم.

تذكّرتُ عبد الرحمن، وأنني لم أجِد أثرًا لهُ هُنا، لكنّي اشتقتُ لهُ أيضًا.

لم أستطع إيقاف نفسي عن البُكاءِ لساعاتٍ طويلة، ورُغم أنني في سريري وفي غُرفتي، للمرة الأولى، لم أستطع النوم، حتى أشرقت شمسُ اليوم السادس.

مع شروق الشّمس أتتني الفِكرةُ فجأةً كرصاصةٍ في الرّأس. آخرُ مكانٍ كُنتُ فيه في عالم الواقع، كانَ المستشفى، رُبّما لو وجدتُها لوجدتُني، لعرفتُ إن كُنت قد مِت أم لا، أو رُبّما أجدُ طريقًا للعودةِ هناك.

أنا لا أعرفُ طريق المستشفى لكنّي أعرفُ أنها ليست بعيدةً عن منزلي، لذا اتجهتُ بالسيارةِ أجوبُ الشوارع التي قد توصلُني إلى شارعٍ أعرفُه.

وبعدَ طولِ بحثٍ، بدأتُ أرى ملامحَ المستشفى الضخمة في نهايةِ شارعٍ واسع، لم يكُن بعيدًا على الإطلاق، لكن عدم معرفتي بالطرُق جعلني أسلُكُ أبعد الشوارع إلى أن وصلت.

تنبّهتُ إلى الشارع الذي كُنتُ أسيرُ فيه في تلكَ اللحظة، الشارعُ ذاته، بكافّة تفاصيله، هُنا كانَ الحادث، هُنا على هذا الطريق، هُنا انتهى كُل شيء، وهنا بدأت أشياءٌ أخرى، هنا فقدتُ خالد، ورأيتُ الفراشة للمرة الأولى.

مرّت أمامي الصورُ سريعة. كُنتُ أقودُ بسُرعةٍ جنونيّةٍ عبرَ الطريق، وكانت عيناي متورّمتين بِفعل البُكاء الطويل والإجهاد، وكانَ الصُّداعُ يعصفُ بكُل خلايا دماغي بعُنف بِفعلِ نقص النوم. هي نفسها الظروف

التي كنتُ فيها يوم الحادث، بدأت عباراتُ آخر حديثٍ لي مع خالد تتكرّرُ بصوتٍ مُزعج في رأسي.

«إحنا مش هينفع نكمّل كدة يا عالية، إحنا بنتعب بعض.»

«أنا مش شايف نهاية كويسة لكُل ده، خلّينا نوقّف هنا ودلوقتي أحسن لينا.»

«بالرّاحة يا عالية، أو وقّفي على جنب.»

كنتُ أشْعُر بحضور خالد، وأتذكّرُ كُل ملامحه، غضبه، نبرةُ صوته المُعاتِبة. كُلّ شيء.

اختلّت عجلةُ القيادةِ في يدي، بفِعل السُرعة أو رُبّما أثّرت حالتي على قُدرتي على الرؤية واصطدمتُ بشيءٍ ما، فانقلبت السيارةُ مرتين قبلَ أن تعود لوضعها الطبيعي.

هل يُمكنُ أن أموت في عالمٍ غير حقيقي؟ هل يُمكنُ أن يقتُلَني خيالي؟

كسى السوادُ كُل شيءٍ بعدها.

(٧)

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾

كانت تلكَ الآياتُ هيَ أوّلَ ما سمعت، وكانَ السوادُ ما زالَ مُطبِقًا، استمرّ الصوت وبصعوبةٍ ميّزتُ أنهُ صوتُ أمي.

كانت محاولاتُ فتح عيني بمثابةِ معركة، وكأنّ سكّينًا كانت مُثبّتةً ومستقرّةً في كُل عين. بعد مُحاولاتٍ لإدخال الضوء بالتدريج، استطعتُ أخيرًا رؤية سقف غُرفة المستشفى، والبالون الأحمر المتهاوي فوقَ رأسي.

«صدقَ اللهُ العظيم» قالتها أمي وهي تضعُ المُصحف جانبًا وتقفزُ فوقي لتحتضنني بقوّةٍ وهي تصرُخ مهللةً بكلماتٍ غيرِ مرتّبة مُختلطةٍ ببُكاءٍ هيستيري والكثير من «الحمدلله» و«أحمدك يارب»، ربّتُّ بدوري على كتفِها بوَهن.

قفزت نور من مكانٍ ما فوق السرير فجأة واحتضنتني ما إن تركت

لها أمي الفُرصة وهي تُهمهمُ في أُذُني:

ـ كنت متأكّدة إنّك قوية وهترجعي.

خرجت أمي لتُنادي الطبيب الذي أتى مُسرعًا وبصُحبتهِ ممرضتان.

ـ حمدلله ع السلامة يا عالية.

(قالها الطبيب بابتسامةِ الأطباء المميزة تلك فأومأتُ برأسي دونَ أن أنطق، لم أكُن متأكّدةً من قُدرتي على النُطق.)

بدأتُ أشعُرُ بما حولي شيئًا فشيئًا، صندوقُ الموسيقى قابعٌ على الطاولة بجانب السرير. باقاتُ ورودٍ في أركانٍ مُختلفةٍ من الغُرفة. استطعتُ التمييز أن تلكَ ليست نفس الغرفة التي كنتُ فيها، ولمحتُ النافذة بجانبي، يبدو أنني في دورٍ أعلى، الحديقةُ وموقف السيارات لا يظهران من هُنا.

استأذنَ الطبيب أمي ونور في الخروج من الغُرفة، خرجت أمي وهي تُحادثُ أبي عبر الهاتف مُكرّرةً وصلةَ البُكاء والكلمات غير المفهومة، وربّتت نور فوقَ كتفي قبلَ أن تطبع قُبلة على خدّي وتخرُج.

انهمكَ الطبيبُ في قياساتٍ مختلفة، للضغط والسُّكر وما إلى ذلك، وأخرجَ من جيبهِ كشافًا صغيرًا راحَ يستكشفُ بهِ حدقةَ عيني.

عدّلَ المحاليل وتأكّد من توصيلها ثُمَ بدأ في سؤالي عدّة أسئلةٍ روتينيّة، حولَ الصُداع والرؤية، كنتُ أُجيبُ بإشارةٍ برأسي بالنفي أو الإيجاب. حتى قال:

ـ عالية كلّميني.. قادرة تتكلّمي ولا لأ؟

بعدَ صمتٍ لثوان. نطقتُ أخيرًا:

ـ آه قادرة.

يبدو أنّ ذاكَ كانَ خبرًا مُطمئنًا وكافيًا بالنسبةِ للطبيبِ الذي اصطحب الممرضتيْن وهَم بالخروجِ من الغُرفةِ مُكررًا:

ـ حمدلله ع السلامة يا عالية.

تقافزت نور إلى الغرفةِ من جديد في صُحبةِ أمي. وجلست أمي على الكُرسي بجانبي، بينما قفزت نور إلى حافّة السرير.

وبعدَ أحاديث روتينيّة حولَ عودتي للحياة وحولَ ثقتهم في قوّتي، خرجت أمي تُحادثُ أبي مُجدّدًا فانفردت بي نور.

عرفتُ منها أنني كنتُ في غيبوبةٍ تامّة لمُدّة ستة أيام، وأنهُم وجدوني متكوّرةً حولَ ذاتي في وضعِ الجنين ومن وقتها لم أفتح عيني.

وأنّ الممرضات كنّ يلاحظنَ دموعًا على خدي في آخر الليلِ أحيانًا.

وأنّ إشاراتي الحيويّة رُغمَ ذلكَ لم تكُن سيئة، مما زادَ من حيرة الأطباء.

وأنها كانت تأتي لزيارتي دائمًا في أوقاتِ الزيارة وتحاولُ الحديثَ إلي لأنّ أحد الأطباء أخبرها أنني رُبّما أسمعها وتمسّكت هي بهذا الاحتمال فصارت تحكي لي كُل شيء.

عرفتُ أنّ آدم كانَ يزورني يوميًا لكنّهُ كانَ يجلسُ مع أبي في الكافيتريا

أو الرُّدهة الخارجية أو الحديقة، ورفضَ رفضًا قاطعًا رؤيتي على هذه الحال.

وأنهُ هو من طلبَ من أمي إحضارَ صندوق الموسيقى من المنزل.

كانت نور تحتضنني بعدَ كُل جملة تقريبًا، وكانت السعادةُ تتقافزُ من عينيها قفزًا.

عادت أمي بصُحبةِ أبي الذي احتضنني وجلَس يُحادثني قليلًا، كانت إجاباتي مُقتضبةً وقصيرةً مع الجميع، أقولُ فقط ما يفي بالغرض.

الشمسُ كانت توشِكُ على الغروب، الشمسُ هنا مختلفة، ساطعةٌ نوعًا ما، واكتشفتُ أن الجو ما زالَ خريفيًا ولم يكُن باردًا كما كانَ في عقلي، لكنّ أظافري كانت لا تزالُ مُكتسيةً بالزّرقةِ بفِعل الغيبوبة ونقص وصول الدّم وعِدّة أسبابٍ فيسيولوجيّةٍ أخرى لا أفهمها.

بعدَ عددٍ من الزيارات والمباركات، كانَ الصُداعُ قد بدأَ يعصفُ برأسي، وطلبَ الطبيبُ خروج الجميع منعًا لإرهاقي، حتى أمي والتي قبل أن تُغادر، سلّمتني عُلبةً صغيرة تحملُ كافّة الكروت التي كانت على باقات الورود في الزيارات المختلفة.

تفحّصتُ الكروت، وقلّبتُها، ثُمّ وضعتُها كلّها جانبًا عدا ستة كروتٍ متشابهةٍ بتوقيعِ آدم. بعدد أيام غيبوبتي القصيرة، ستةُ كروتٍ لم يُكتَب فيها أيُّ شيءٍ سوى اسم «آدم».

تذكّرتُ الحادث، تفحّصتُ جسدي بحثًا عن أي رضوضٍ أو جروحٍ

جرّاءَ انقلاب السيارةِ بي مرتين، ولم أجِد أي شيءٍ ولا حتى خدشًا واحدًا.

فقررتُ إخفاءَ ما حدث، عن أهلي، عن نور، عن الجميع. وكأنّ شيئًا لم يحدُث. وكأنني كُنت أغوص في غيبوبة من الظلام والفراغِ وحسب.

أردتُ الرحيلَ ورحلت، وأردتُ العودة وعُدتُ بصعوبةٍ بعدَ صِراعٍ عبثيٍّ مع عالمٍ غير حقيقي، ومع الوِحدة، والعُزلةِ، والخوف، والبُكاء، والحنين. يكفي إذًا، لا داعي لتذكُّر أيٍّ من ذلك أو الحديث عنه.

عادَ الطبيبُ بعدَ أقل من ساعة، مُعتذرًا عن إيقاظي لإجراءِ عددٍ من الفحوصات.

ساعةٌ ونصف بينَ غُرفةِ الأشعّة وغُرف التحاليل، والأطباء في حيرةٍ تامّةٍ من استقرارِ جميع إشاراتي الحيويّة ممّا يُصعّبُ من تفسيرِ ما حدث، سُمِح لي بعدها أن أعودَ مُجددًا إلى غُرفتي. كنتُ مُنهكةً وشاردة. فأدركني النوم ما إن وضعتُ رأسي فوق الوسادة. رُغم خوفي الدّاهم أن أستيقظَ لأجدَ نفسي في المدينة الخاويةِ من جديد.

(٨)

كانَ الصُداع ما زال يعصفُ برأسي حينَ أيقظني صوتُ أبي وهو يتحدّثُ إلى الطبيب، اعتدلتُ محاولةً استيعاب المكان من حولي كالعادة للتأكّد أنني هنا بينهُم ولستُ في أي عوالم أخرى لا أعرفُها.

كُل شيءٍ في مكانه، الجُدران والسرير، والبالون الأحمر الذي يبدو أنهم أحضروه معي من غُرفتي السابقة، باقاتُ الورود، وصندوقي الموسيقي.

البالون في سقف الغرفة، دقّقتُ النظر إلى البالون قليلًا، لماذا لا يتناقصُ هواؤه، كان من المُفترض أن يصيرَ أقلّ حجمًا بكثير بعد هذه المُدّة.

قطع أفكاري صوت الطبيب مُعلِنًا:

ـ هتخرُجي النهارده بالليل يا عالية أول ما نخلّص الفحوصات، أنا عارف إنّك زهقتي أكيد.

لكنّهُ لم يجِد مني أي رد فِعل أو مبالاةٍ بما أعلنه.

بدأت أمّي في تحضيرِ أشيائي وأنا أراقبُ حركتها في أرجاء الغُرفة، كانَ الوقتُ يمُرُّ ببُطءٍ ثقيل، رفعتُ رأسي لأجد أنّ البالون اقتربَ من حافّةِ النّافذة، جذبتُهُ برويّةٍ وضغطتُ عليْه ضغطة خفيفة، كانَ ما زال منسوب الهواء فيهِ كما هو، لم يرتخِ، لم ينقُص.

ـ عالية، قومي غيّري هدومك. (قالتها أمي مُتعمّدةً قطعَ شرودي.)

قفزتُ من فوقِ السرير في حركةٍ طفوليّة، وتجاهلتُ نظرةَ أمي المعاتبة.

ارتديتُ الجينز والبلوزة المنقوشة التي دخلتُ بها من أبواب المستشفى أوّل مرة، ووقفتُ أمام المرآة محاولةً ربطَ شعري، لكنّهُ ولأوّل مرةٍ منذ سنين، كان أقصرَ من أن أستطيعَ تقييده، وبعدَ عدّة محاولاتٍ فاشلة، استسلمتُ للواقع، ورُحتُ أُعدّل موضع خُصلاته غير المتساوية، الأمرُ يحتاجُ إلى زيارةٍ إلى صالونٍ لإصلاحِ ما أفسدهُ مقصّي وخيالي.

غادرتُ الغرفة دونَ أي تنبيه لأمي، وسلكتُ الطُرقاتِ التي بِتُّ أحفظها عن ظهرِ قلبٍ الآن، تتبّعتُ أرقام الغُرف التي قادتني من الدور الرابع إلى الثاني، والذي كانت فيه غُرفتي السابقة، وغُرفة عبد الرحمن، إلى أن وصلتُ إلى الغرفة، وقفتُ على بُعدِ أمتارٍ أتأمّلُ الرقم من بعيد، شيءٌ في داخلي أخبرني أن اللقاء الأخير لن يكون فكرةً سديدة.

تراجعتُ خطوتين إلى الخلف، وأعدتُ التقدّم حتى وجدتُ نفسي أمام المربّع الزجاجي للغُرفةِ، كانَ يبدو مُنهكًا ومُستنزفًا وشاحبًا أكثرَ من أيْ وقتٍ مضى.

دفعتُ البابَ بهدوء، وأطللتُ برأسي.

ـ ممكن أغلبَك ماتش؟

ـ بس انتِ ما بتحبّيش الكورة.

(قالها بابتسامته السحريّة المعهودة، ووجههُ مُتهلّلٌ حقًا)، رحّبَ بدخولي فدخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي ودونَ استئذانٍ شغّلتُ البلاي ستيشن واتّخذتُ مقعدي بجانبِ سريره.

كانَ واضحًا أنّهُ يحاول إعطائي الفُرصةَ لهزيمته، وقد كان.

لا أعرفُ لماذا اخترتُ ألّا أخبرهُ أنّي راحلةٌ خلال ساعات مثلما اخترتُ عدم إخبارِه بمُغامرتي الأخيرة، وكما اخترتُ سابقًا أن أحكي لهُ كافّة التفاصيل وأُخفي عنه «خالد»، لم أُخبره بأسوإِ مُغامراتي وأعنفها على الإطلاق، واكتفيتُ فقط بتبرير اختفائي الأيام الماضية بسوء حالتي الصحيّة وحالته كذلك بعدما علمتُ أنّ صحتهُ تدهورت للغاية أيام غيبوبتي لذا لم يعرف من أحدٍ أنني غائبةٌ عن الوعي.

لم أترُك لهُ رقم هاتفي أو عنواني، تركتهُ بلا دليل وغادرتُ الغرفة في محاولةٍ لطيّ الصّفحة بالكامل.

عُدتُ إلى غُرفتي حيثُ كانت أمي ما زالت تُرتّبُ حاجياتي في الحقيبة.

استلقيتُ على السريرِ أُراقبُ البالون، في محاولة لإيجاد أي تفسيرٍ واقعيٍّ لمسألة عدم تناقُصِ حجمه.

كُنتُ مضطرةً لإعادة ترتيبِ أفكاري، لذا شرعتُ في استحضار كافّة الأحداث من عوالمي المختلفة.

عبد الرحمن لم يظهر في المدينة الخاوية، لكنّ مذكّرتهُ الزرقاء ظهرت بينَ أشياءِ خالد، ومخطوطاته كانت بخط يدِ خالد، هناكَ شيءٌ ما يربُطُ كليهما، لكنّي فقط لا أعرفُ ما هو.

ازدادت أفكاري عُنفًا وحيرة. فتحتُ عيني المُغمضة ببُطءٍ وأنا أنظُرُ إلى السّقف، لأجدَ أن البالون الأحمر قد اختفى تمامًا، وكأنهُ لم يكُن يومًا هنا.

التفتُ إلى النّافذة فوجدتها مُغلقة مما يُلغي احتمالية تحليقه من النافذة.

لم تعُد مفاجآتٌ كتلك تُفزعني. عالمي بأكمله يختفي أحيانًا ويحلُّ مكانه عالمٌ آخر، لذا لا أظُن أنني يُمكنُ أن أُصابَ بالذّعرِ لاختفاء بالونٍ أحمر لا تنطبقُ عليه قوانينُ الفيزياء الطبيعية.

اعتدلتُ جالسةً على حافّة السرير أراقب أمي في صمت، وهي الأخرى لم تُحاول الحديث إليّ وظلّت مُنهمكة في التوضيب.

كانَ المشهدُ التالي على باب المستشفى في انتظارِ أبي الذي غابَ إلى الجراج، ظهرت السيارةُ أمامي لكنّي تسمّرتُ في مكاني لحظاتٍ إلى أن أتاني صوتُ أمي:

ـ عالية اركبي يلّا.

ولجَتُ إلى المقعدِ الخلفيّ في وهن وأسندتُ رأسي إلى زُجاج السيارة ورُحتُ أراقبُ الطريق إلى أن أدركني التّعب فأغمضتُ عيني.

أيامٌ معدودة مرّت عليّ بينَ جُدران المستشفى، لكنّ الحياةَ بينَ عالمين تجعلُ الوقت يتضاعف، والغُربةُ تزداد. فتحتُ عيني فإذا بنا أمامَ حديقةِ المنزل، رأيتُ نور تقفُ عند البابِ تحملُ في يدها «سيرشا»، قطّتي البيضاء المُدللة السّمينة، أدركتُ وقتها أنّ الواقع بدأ يضغطُ ويُسيْطِرُ كما عهدته.

ترجّلتُ من السيارةِ في وهَن، أمسكتُ بسيرشا واحتضنتُها.

دخلتُ عبرَ بوابة البيت في صُحبةِ أبي وأمي ونور، وأطلقتُ سيرشا إلى الحديقة قبل أن أدخُل.

صعِدَت أمي درجات السلّم إلى غُرفتي مباشرةً وانهمكت في إفراغ حقيبتي وإعادة أشيائي إلى أماكنها الطبيعيّة في الغُرفه، قبلَ أن تنزلَ إلينا في الأسفل لإعطائنا الإذنَ بالصعود إلى الغُرفة.

صعدتُ وحدي تاركةً نور مع أمي في المطبخ.

جلستُ على سريري أتأمّلُ الغرفة وكأنّي أراها للمرة الأولى، السّقف المنقوش بفراشاتٍ مختلفة الأحجام، الكُتُب المرتصّة في صفوفٍ متلاصقةٍ على رفوفٍ مرتفعةٍ فوقَ السّرير، الستارةُ الورديّة ذات النّقوش البيضاء المُنمنمة، رفُّ التُحف، لوحاتي المتناثرةُ على حوائط بلا ترتيبٍ معيّن، الصندوق الوردي كانَ موضوعًا في مكانه في رُكن الغُرفة مُستترًا تحت مفرشٍ مُزركش. نظرتُ إليْه فوجدتهُ مكسوًا بالتُراب كأنّهُ لم يُلمَس منذ دهر. حملتُه لأضعهُ أمامي فوق السرير، وجلستُ أتأمّلهُ.

ودخلَت سيرشا من باب الغُرفة الموارب تتمختر، وصعِدت في هُدوءٍ إلى السرير لتستقرَّ فوقَ حِجري.

رفعتُ يدي إلى رف التُحف وأمسكتُ بصندوقي المنقوش المُذهّب وكانت أمي قد أعادتهُ إلى مكانهِ في الرّف، فتحتهُ فانطلقت الفتاةُ السّاكنة في داخله في الرّقص على أنغام الموسيقى الترنيميّة، أمسكتُ بورقةٍ مطويّةٍ في داخله والتي كُتِبَ فيها:

«كُلّ عامٍ وأنتِ الهوى والحياةُ والمصير، والبهجةُ الأبديّةُ المرغوبة... آدم»

ـ بيسلّم عليكي على فكرة (قالتها نور وهي تقفُ عند باب الغُرفة بابتسامةٍ هادئة.)

ـ ما رضيش ييجي، قالّي كده أحسن.

(أكملَت جُملتها وهي تتخذُ مقعدها مُتربّعةً فوقَ كُرسيي الملوّن المنقوش.)

وقبلَ أن أهُزّ رأسي بالإجابة، تجمّدت عينا نور وهي تُحدّقُ إلى الصندوقِ الوردي الكائن أمامي. وسألت مُعاتبة:

ـ عالية، انتِ إيه اللي خلّاكي تطلّعي الصندوق ده؟

لم أكُن أرغبُ في الحديث عن خالد، أو الصندوق، أو أي شيء، كُنتُ مُنهكة، ورأسي يدور في كافّة الأنحاء ليعودَ إليّ تائهًا دائخًا. فحملتُ

الصندوق ووضعته في مكانٍ بعيدٍ في قعرِ الدولاب ونور تُراقبني في صمت.

جلستُ أمامها على السرير، صمتت لثوانٍ قبل أن تقف فجأة وتُعلِن في عصبيةٍ لم أفهمها:

ـ أنا هاقوم أمشي يا عالية وهاجيلك بُكره، انتِ وعدتيني إن إحنا هنتكلم.

هززتُ رأسي بالموافقة دونَ أن أنطق. وسرعانَ ما اختفت نور من أمامي لأصيرَ وحدي.

أسندتُ رأسي إلى وسادتي القُطنيّة، ورأيتُ الغُرفةَ تهتزُّ لثوانٍ معدودة مما أصابني بالذُّعر، قبلَ أن يتلاشى كُلّ شيء، لأجِدَ نفسي في حقلٍ بنفسجيٍّ زكيّ الرائحة، تُحيطُه أنهارٌ من الجانبين، وكنتُ بالفستان الأبيض الخفيف ذاته، اتّخذتُ طريقي حتى وصلتُ إلى أحد النهريْن، ونظرتُ إلى وجهي على سطح المياه، فإذا بخُصلاتِ شعري البُني قد طالت وتتطايرُ فوقَ كتفي بحُريّة.

على الضّفةِ الأخرى، رأيتُه، آدم، بُمكتملِ البهاء والصّمتِ أيضًا.

خطوتُ برجلي إلى النهرِ فإذا بقدمي تطفو فوقَ الماء بخِفّة، خطوتُ الخطوة تلوَ الأخرى، إلى أن صِرتُ أمامهُ على الضفّةِ الثانية،

كانت تلكَ هي المرة الأولى التي أرى فيها آدم بهيئته بهذا الوضوح في عوالمي، كانَ دائمًا ما يأتيني عابرًا أو قتيلًا.

كان هادئًا، يكسوهُ الجمال كعادته، لكنّ أنفاسَهُ كانت باردةً تلفحُ وجهي كالصّقيعِ فيتجمّد.

حاولتُ أن أكلّمهُ فإذا بشفاهي تتحرّكُ ولا يخرجُ من جوفي الصوت، حاولتُ مرارًا لكنّ الكلمات كانت تخرُج بلا صوتٍ في كُلّ مرة.

أمّا هو فظلّ يرمقُني بذات النظرة المُتجمّدة والجليدُ في عينيه، ولم ينطِق، مددتُ يدي إلى الأزهار البنفسجيّة وقطفتُ إحداها فإذا بالفرعِ مكانها ينزفُ دمًا أحمر قانيًا، يُغرِقُ الأرض من تحت أقدامنا.

تحرّك آدم عدّة خطواتٍ للخلف مُبتعدًا عنّي، حاولتُ الاقترابَ مُجددًا لكنّ الأرض بدأت تذوبُ من تحت قدمي وسمعتُ صوتًا مُدويًّا يشبهُ قرعَ الطبول، وجدتُني بعدها فوقَ سريري والفراشةُ البيضاء المخططة تخرُج من نافذة الغُرفة في خفّة.

رأيتُ شاشة هاتفي مُضاءةً واسمُ آدم بجانب رسالةٍ كان محتواها:

«حمدلله على سلامة رجوعك.».. هكذا فقط.

اخترتُ الصّمتَ طوعًا هذه المرة، كُل ما يُمْكِنُ أن يُقال من حِججٍ قد قيلَ سابقًا، كُل ما يجبُ تفسيره وتأويله وشرحه سيستعصي على فهم أي أحد وخصوصًا آدم بواقعيته المُفرطة.

الصّمتُ لا يؤذي، الصّمتُ يَتْرُكُ الجروح كما هي، لا يُطيّبها لكنّهُ أيضًا لا يُنكِؤها، على الأقل جروحه هو.

ما زلت أُراقبُ سيْرَهُ وأقتفي سيرته ما استطعت، لكن كُلًّا منا

يجبُ أن يلزم ضِفّته، لذا فقد عقدتُ قراري بأن أتّخذ مقعدي البعيد وأكتفي بالمشاهدة.

لا أستطيعُ إقحامه في أشياءٍ أنا نفسي ما زلتُ لا أفهمها، كيف يُمكن إخبارهُ بأني تحرّكت مشاعري قليلًا نحو شخصٍ قابلتُه على سبيلِ المصادفة في المشفى، ثُمّ اختفى ولا أعرف كيفَ حدث ذلك ولماذا؟ أو أنني ما زالَ شبحُ الماضي مع خالد يُطاردُني طيلة الوقت، وأنّ صورتهُ لا تغيبُ عن ذهني.

كيفَ لهُ تقبُّل واستيعاب هذا الكَم من الحيرة؟!

ما زالَ آدم يأتيني في الأحلام بمُكتَملِ البهاء، وما زالت عيونه اللوزيّة تُطاردُني، لكنّي مُطمئنةٌ للغياب، وللسكوت، وللجفاء. هل يمكن الاطمئنانُ للجفاء؟! أليسَ من طبع الجفاءِ أن يأكُل خضارَ القلوب ويترُكها خواءً وجفافًا؟ كيف يمكن الاطمئنانُ إلى العجَف؟!

يوسف أوّل فيما رَآه الملك أنّ السّبع الخُضر يأتي من بعدهنّ سبعٌ شِدادٌ عِجاف، فإذا تخطّيتَ العجَف رُزِقت عامًا يُغاثُ فِيهِ القلبُ الجاف فيمتلئ خيرًا ونعيمًا وحياة. وأنا الآن في أعوام العجَف، والحيرة والضياع، والآن لا يحقُّ لي أن أرتوي بخضارِ قلبه وأَنا المُشتتةُ عنه بغيره.

لكن هناكَ ما هو أسوأُ من الجفاء، إذ إن الجفاء يُمكنُ احتمالهُ بشيءٍ من الأمل والتصَبُّرِ بالذّكرى الحلوة، وبصندوق الموسيقى، وبرائحته، وبرؤياه في خيالي، أمّا ما هو أسوأُ من الجفاء فإنّهُ الزيْف، وأنا الآن مُمتلئةٌ حتى آخري بكليهما.

أن أحملَ في قلبي وخيالي حقلًا من اللافندر، ممتلئًا بالشّغف، وبالشوق البنفسجي المتوهّج، وبالوَلَعِ الذي لا تُفيدُ معهُ قيودُ الصّمت، لكنّي أُصِرُّ ألا أُبدي مِنْهُ بَتلَةً واحدة، وأتركه ينشعُ في أرجاءِ جسدِي، يتبرعمُ فوقَ عظامِ الضلوع، ويُزهرُ في كُل شُريانٍ زهرةً وحيدة، ويتسلّقُ خلايا الذاكرة، ويزدادُ ويزدانُ بينَ تلافيفِ العقل، يعصرُ العطرَ عصيرًا يُضَخُّ من القلبِ مرتّينَ يوميًا، مرةً مع شروقِ الشّمس، ومرّةً حينَ ينزلُ على الأرضِ سِترُ السواد، والعطرُ يخنقُ الأنفاس إذا لم يَجِد مخرجًا، لكنّي مع ذاكَ كُلّه أُصِرُّ على إخفائه عن العالمين وعنهُ هو بالأخص، ليتحوّلَ كُل هذا الجمال إلى وحشٍ يُصارعُ دواخلي.

الزيفُ أن أحملَ لهُ حقلَ لافندرٍ بأكمله، وأُبدي لهُ صمتًا وموتًا أسودَ عديم الرّوح والرّيح والحياة، فأسقيهِ جمودًا كُلّما أتاني.

أن أحمِلَ لهُ كُل حُب الدنيا وشوقِ العالم، وسحر الحياةِ وأُهديهِ كُل ما أقوى عَلَيْهِ من القسوة والتجاهُل والجمود. لأنني مُشتتة، ولأن غيرهُ يُشاغلني في الحُلم ورُبّما في الحقيقة. ولأنّ الصمت كانَ اختيارَهُ الذي قبِلتُ أنا مُسبقًا بالرّضوخِ له، رُبّما لأنني تسبّبتُ فيه وأجبرتُه على اختياره، ولأنّهُ هوَ من علّمني كيفَ أحترفُ المُكابرةَ السّكوت وإن خنقَت الكلماتُ رئتيّ.

ولأنها ليست المرّة الأولى التي أمشي فيها فوق أسوارِ الجحيم لأحمي ورودَهُ الواهنة. ولأنّي صِرتُ أعرفُ زيفَ كلماته الأخيرة في رسائله الروتينيّة إليّ، والزيفُ يُقابَلُ بالزيف.

ما يُمكّنني حقًا من كَبحِ جماح اللاڤندر هو كلمةٌ أُكرّرها كُل صباح «كوني واقعية.. كوني واقعية» رُغم صعوبَة الواقعيةِ على أمثالي ممّن يخلطونَ بينَ واقعِهم وخيالهم إلى هذا الحد. لكنّ الواقعية وحدها قادرةٌ على قتلِ الحقولِ البنفسجية، ليعودَ الدّمُ في الأوردةِ مُجرّدَ دمٍ أحمر قانٍ لا ورودَ فيهِ ولا براعم، وتعود الضلوعُ عظامًا بيضاء وليسَ أرضًا خصبة، ويعود الجسدُ جسدًا والنّزفُ نزفًا والجراحُ جراحًا والموتُ موتًا وليسَ وسيلةَ انتقال.

الواقعيةُ وحدها قادرةٌ على إنزاله من فوق عروشِ أحلامي البنفسجية، رغم أنّه ينتمي إلى هناك، لكنّهُ فقط لا يعرفُ ذلك، وأنا لا أقدرُ على تفسيره له، ورغم أنّ الواقعيةَ لا تُجدي نفعًا مع كُل هذا القُبح.

ورغمَ أنني لا أرغبُ حقًا في قتلِ حقول اللاڤندر، لكنّي أعلمُ كم يرغب آدم في أن يراني يومًا «واقعية»، أن يراني كما عهدني سابقًا، حبيبتُه الأولى، الرّاقصةُ التي تدورُ في صندوقِه الموسيقيّ الأسود المُذَهّب.

ولأنّي لن أستطيعَ حمايتهُ أو حمايتي من بطش خيالي حينَ يجمح. ولأنهُ لا يستحقُّ الموتَ قتيلًا ولو في عوالمي الأخرى.

لكُل ذاكَ وأكثر، اخترتُ الزيْفَ الآن، اخترتُ المُكابرة، اخترتُ التجاهُل وعدم الرّد، اخترتُ الاختناقَ باللاڤندر وحدي.

لأجلِهِ ولأجلِ ما يُشفيهِ من الصّمت، أُبقي اللاڤندر في داخلي ولو اختنقتُ بهِ في خيالي.

رُغمَ أنني أحتاجُ إلى آدم حقًا وأحتاجُ إلى واقعيتهُ المُفرطة التي رُبّما تحميني من ذاتي. لكنّي لا أستطيعُ تعريضهُ لهذا الكَم من التشتّت والألم، هو لا يستحقُّ هذا الوجع الممزوجِ بالحيرة.

بعدَ طولِ تفكير، رميتُ الهاتف بجانبي ودفنتُ رأسي في الوسادة وانخرطتُ في بُكاءٍ طويل.

حاولَت سيرشا التَمسُّح في شعري القصير في مُحاولةٍ بريئةٍ للمواساةِ فنَهرتُها بعيدًا وأكملتُ بُكائي إلى أن غلَبني النوم في ساعةٍ متأخّرة.

(٩)

استيقظتُ على صوتِ نور يصدحُ في أرجاءِ المنزل بأكمله، وسيرشا تُداعبُ وجهي في محاولةٍ لإيقاظي، لإطعامها طبعًا.

لملمتُ المناديل المُتناثرةَ على السرير، وألقيتُ ببعضِ الحبوب في طبقِ سيرشا وانهمكَت هي بدورها في التهامهم، وخرجتُ مترنّحةً من باب غُرفتي، استرقتُ السّمع إلى مناقشةٍ تدورُ في الأسفل بينَ أمي ونور حول ما إن كانَ يجبُ عَرضي على طبيب نفسيّ أم لا.

حاولتُ إصدارَ ضجّةٍ معقولةٍ تكفي لإغلاقِ الموضوع، وقد كان.

سلّمتُ على نور واحتضنتُها، ووافقتُ على عَرض أمي بتحضير الفطور لكلينا.

- نور، هنفطر وبعدين ننزل سوا، عاوزة أروح مشوار.

قُلتها لنور منتظرةً تحقيقًا جنائيًا من أمي حولَ وجهتنا، وعن كوني ما زلت مريضةً وضعيفة وحولَ أنني يجبُ أن آكُل وجباتٍ محددة وأطعمةً

بعينها بأمر الطبيب المُعالج، وأن عليّ أن أتصلَ بأبي لإخباره، وما إلى ذلك من مُبرراتٍ ستفشلُ في النهايةِ في إثنائي عن نيّتي.

وبعدَ نقاشٍ طويل نجحت نور في إقناعِ أمي أنها ستكونُ معي طيلة الوقت وأنها لن تترُكني أُرهقُ نفسي وأننا بالطبع لن نتأخّر.

تناولتُ الفطورَ على عجَل وصعدتُ إلى غرفتي مجددًا لارتداء ملابسي، والتي لم تكُن مهمةً سهلة كما اعتقدت.

تسمّرتُ أمام دولابي وكأنني أراهُ للمرّة الأولى، شعرتُ أنني أرى قطع الثياب تلك للمرة الأولى في حياتي، ومع ذلك كُنتُ أكرهُ كل قطعةٍ أُمسكُ بها.

في النهاية، ناديتُ نور لمساعدتي، جلستُ أنا على السرير وتركتُها تقومُ بالمهمة، فاختارت بلوزةً ورديّة، وجينزًا داكنًا.

بعدَ انتهاء المهمة بنجاح، غادرتُ مع نور، وقبلَ أن نخرُج من البابِ بثوانٍ قالت نور في بهجةٍ غير مفهومة:

ـ انتِ عارفة إن آدم كان بيحب البلوزة دي جدًا.

وقفتُ متجمّدةً في مكاني بلا حراك، بعدما فشلتُ في تحديد إن كانَ ما قالته يُؤلمني أم يسعدني. في النهاية قررتُ عدم التعليقِ على ما قالته.

فتابعت هي:

ـ احنا رايحين فين بقى؟

أخبرتُها أنني لا أعلمُ تحديدًا، ورُحت أصِفُ لها بدقّةٍ ما رأيتُهُ في خيالي قبلًا، البيت ذو النافذة المثلثة. وبعدَ صراعٍ مع ذاتي وكثيرٍ من التهتهة أخبرتُها أخيرًا أنني أُريدُ الذهابَ إلى منزل خالد.

كانَ القرارُ صاعقًا بالنسبة لنور التي ظلّت تُحدّقُ في عينيّ طويلًا لتتأكّد أنني جادّةٌ فيما أقول، قبلَ أن تسألَ أخيرًا:

ـ ليه؟

أجبتُها باقتضاب:

ـ من غير ليه.. محتاجة أروح هناك.

سكتت مُتسمّرةً لثوانٍ معدودة قبلَ أن تتحرّك بالسيارة بقيادتها المتهوّرةِ التي لم أفتقدها تمامًا، لكنّي على غيرِ العادة لم أصرُخ في وجهها لتُهدّئ من سُرعتها، فقط لم أعُد مُهتمّة.

عرفتُ الشارع بمُجرّد دخولنا إليه، طلبتُ من نور أن تركن السيارة في أقرب مكان، ونزلنا نسيرُ على أقدامنا. وقفت نور في ظهري تمامًا وأنا شاردةٌ أُحدّقُ في النافذة المثلثة في الأعلى، وضعت يدها على كتفي فتنبّهتُ وخطوتُ نحو الباب.

وقفتُ عند باب العقارِ وأحسستُ بتصاعُد الدّم إلى رأسي في اندفاعٍ تسبّب في صُداعٍ مُفاجئ. وأتاني صوتُ نور وكأنه قادمٌ من بعيد:

ـ مالك يا عالية؟

ففاجأتُها بسؤالي:

ـ هو خالد مشي ليه؟

ـ عشان قدرُه كده.

لم أفهم إجابتها، وشعرت هي بدورها بالحيرةِ في عيني، اقتربت واحتضنتني محاولةً تهدئة حيرتي التي لم تكُن تعلمُ سببها على الأغلب.

دفعتُها بعيدًا عني وكررتُ سؤالي:

ـ ليه مشي وسابني؟

ـ فيه حاجات ما بتبقاش بايدنا يا عالية، وموت خالد في الحادثة ما كانش غلطة حد، أنا عارفة إنه المفروض ما أتكلّمش في الموضوع ده بس أنا بدأت أحس إنّك ما بقيتيش عارفة الحقيقة فين.

موت خالد.. !!

تلكَ إجابةٌ لم أرغب في سماعها قط، أمسكتُ برأسي وكانَ الصُداعُ يشتد بعُنف.

أمسكت نور بيدي وسحبتني سحبًا للعودة إلى السيارة وأنا في تمام الذهول والشرود، لاقتناعها أن بقائي هنا لمدةٍ أطول، ليسَ فكرةً سديدة.

أردتُ التأكُّد من شيءٍ ما فوصفتُ لنور عناوين المنازل التي قضيتُ فيها ليالي عُزلتي في العالم الآخر. فأخذتني نور إلى المنزل تلو الآخر، كانت جميعُها أماكنَ أعرفها أو دخلتُها قبلًا لأسبابٍ مُختلفة.

سألتني نور إن كنتُ أرغبُ في الذهاب إلى مكانٍ آخر وأشرتُ لها برأسي نفيًا.

هي لم تكُن تعرفُ ما الوسيلةُ المناسبة للتعامُل معي في تلكَ الحالة، ما يجب قوله وما يجبُ السكوت عنه، ما يُناسبني وما لا يناسبني، ما يمكن أن يهدّئني وما يُمكن أن يُثير وجعي أكثر، لذا كانت تتصرفُ بحذرٍ شديد يصلُ إلى درجة المُبالغة ولها في ذلك عُذرها.

سألتني إن كنتُ أرغبُ في الحديث عمّا حدث يوم الحادث فأجبتُ نفيًا أيضًا.

كُنتُ شاردة، بدأتُ في استدراكِ فكرة أنّ كُل ما رأيتهُ في العالم الآخر كان أجزاءً مُركّبةً من عالم الواقع، حتى الحادث الأخير، عقلي فقط قادرٌ على استحضارها بكافّةِ تفاصيلها من مكامن لا أعلمُ عنها شيئًا في دماغي، واستخدامها ضدّي بأسوأ الطرُق الممكنة، عقلي استغلّ رغبتي في الهرب لمُعاقبتي على التراخي والانفصال المستمر والاستهتار في كُل ما يخُص حياتي وعلاقاتي.

قبلَ أن نصل إلى المنزل بشارعٍ واحد طلبتُ من نور أن نذهب إلى مكانٍ أخير. طلبتُ منها إيصالي إلى المستشفى بحُجّة أنني أريدُ السؤالَ عن شيءٍ ما بخصوصِ حالتي.

نور لم تُصدّق حُجّتي قطعًا وكانَ ذلك باديًا في عينيها، لكنها قررت تنفيذ طلبي على أي حال دونَ أن تُلحّ بالسؤال.

عند مدخل المشفى طلبتُ منها انتظاري في السيارة.

ودخلتُ مباشرةً إلى الاستقبال، حيثُ كانت الموظّفةُ ما زالت تذكُرني. وأخبرتها أنني أُريدُ زيارة أحدهم في الدور الثاني.

أخرجت دفتر الزيارات لتسجيل اسمي، سألت عن اسم المريض فأجبتُ دونَ تردد:

ـ عبد الرحمن عزيز.

مرّت بالأسماء عدّة مرات، ثُمّ أدخلت الاسم إلى جهاز الكمبيوتر أمامها.

وبعد عدّة محاولات بحث أخبرتني بثقةٍ تامة.

ـ مافيش حد بالاسم ده يا عالية لا في الناس الموجودة ولا اللي خرجوا قريب. فاكرة رقم الأوضة؟

كنتُ ما زلت أذكُر الرّقم المحفور بدقّة فأجبتها دون تردّد:

ـ ١٣٦

أعادت البحث بالرّقم هذه المرة. لتعودَ إليّ إجابتُها الصادمة:

ـ الأوضة دي مقفولة من فترة للإصلاحات.

لم أنطِق بكلمةٍ أخرى، خطوتُ عدّة خطواتٍ مُبتعدةٍ عن مكتب

الاستقبال والموظّفةُ تُراقبني بعينيها. جلستُ في أول كُرسيٍّ في الحديقة الخارجية أحاولُ ترتيب أفكاري المُشتتة.

المنزلُ الذي وجدتُ فيهِ المذكّرة الزرقاء التي تحملُ اسم عبد الرحمن ظهرَ في النهايةِ أنهُ منزلُ خالد. وخالد ماتَ في الحادث الذي منه بدأ كُل شيء، وعقلي كانَ يُمارسُ ضدّي نوعًا من الإرهاب للتلاعُب بالحقيقة وإخفائها عني، رُبّما لأنني لا أتحملّها، مُستغلًّا ميلي الشديد وجنوحي إلى الخيال.

عبد الرحمن لم يكُن سوى مهرب آخر، أقلّ قسوةً عليْ من ظهورِ خالد المتكرّر، وأكثرُ تجسُّدًا وواقعية، ويحملُ الكثير من صفاتِ خالد ليصيرَ مألوفًا لي فيقوى على كسرِ حواجزي بسهولة، ابتسامتهُ وردود أفعاله وحتى أشعارهُ المكتوبة.

الكتابُ الأزرق لم يكُن سوى مذكّرات خالد التي تسكُن صندوقي الورديّ الآن.

البالون الأحمر لا وجودَ لهُ أيضًا، هو فقط ذكرى قديمة من خالد كانَ عقلي الظاهر قد قرّر محوَها من ذاكرتي الحاضرة، رُغم أنّ البالون الحقيقي الخالي من الهواء الآن، هو أيضًا يسكُن الصندوقَ الوردي. الصورةُ الآن رُغم تناقُضها وكثرةِ تفاصيلها لكنها صارت أكثرَ وضوحًا وكريستاليّة.

أنا لم أتحمّل موتَ خالد، وكانَ أمامي طريقان، أفضلهما سيءٌ للغاية. إما أن أتقبّلَ موته ومعهُ أتعايش مع إحساس الذّنب أنني رُبّما قتلتهُ لأن عجلة القيادة كانت في يدي أنا، وعصبيّتي الزائدة كانت السبب الرئيسيّ في الحادث.

وإما أن أُنكِرَ موته تمامًا، أتناسى الحقيقة، وأجنحُ إلى أي فكرةٍ أخرى غيرها، وكانَ ذاك ما فعلته وساعدني عليْه من حولي بتجنُّب الحديث في الموضوع، وإن كانوا لم يتعمّدوا ما وصلتُ إليه.

عُدتُ إلى نور في السيارةِ والتي كانت تتحدّثُ إلى أحدٍ ما عبرَ الهاتف وأنهت المُكالمة بمجرّد أن فتحت باب السيارة.

كنتُ قد قررتُ أن أحكي لها ما أُخفيهِ عنها، رُبّما لأنني أدركتُ أن ما يحدُثُ في رأسي يفوق طاقتي على احتماله وحدي.

أعلمُ يقينًا أن ثقتي في الآخرين صارت محدودة، والأقربينَ بالأخص.

خاصةً بعدَ أن صِرتُ أراهُم في خيالي المرّة تلوَ المرّة في صورٍ لا تُعجبني، أن أراهُم يتساقطونَ من حولي تباعًا، على منحدراتٍ وعرةٍ ومختلفة، أو قتلى في معاركَ غير مفهومة، بعضهُم يُدركُ أنهُ في مرحلة السقوط، والبعضُ يُعميهِ الإنكار، ولا توقظهُ إصاباتُه البالغة العميقةُ في الرّوح.

أن أراهُم يبتعدونَ في طُرُقٍ مختلفة، أو يُقتلونَ بأيدٍ لا أعرفُها،

يمنعُني الإنهاكُ من اللحاق بهِم، أو إنقاذهم، ولا أملُك من القوّة ما يُمكّنني من إيقاف ما يحدُث. وصوتي المبحوح لا يصِلُ إلى آذانهم وسط الهرجِ والمرجِ والضجيج، وحتى إن امتكلتُ الصّوت الجهوري، وإن سمعني الكونُ بأكمله، فهُم لا يسمعونني فيصيرُ الكون كأنه أصمُّ وأجوف.

ألقيتُ إليهم في كُل المرّاتِ بكُل حِبالي المُهترئةِ الواهنة أملًا في أن يتشبّثوا بها، فتركوها وجنحوا للسقوط والتهاوي من فوقِ أبراج مُخيّلتي، والآن صارت الحبالُ لا تصلُح لإنقاذ أحد، ولا حتى لإنقاذي وحدي.

لا يُمكنني لومُهم على ما أوصلهُم إليْه خيالي، ولا أملُك سوى الوقوف إلى جانبهم على حواف الهاوية، أُصَلّي لهُم، وأُنشِدُ ما يحبّونهُ من الأغاني الناعمة، وأرجوهم ألا يستسلموا للسقوط في براثن خيالي المريض، لا يُمكنني لومهُم، ولا لعن ظُلمتهم التي تُحيطُني في خيالاتي، ربّما لأنّي لستُ عن ذلكَ ببعيد أو لأنني أنا من أخلُق هذه الظلمة، لكنّي فقط قررتُ السقوط في هاويةٍ غيرِ التي اختاروها، أو أنني أجّلتُ السقوط حتى يحينُ موعده، ربّما منعتني موسيقى لا أعرفُ من أطلقها لكنّها وصلت إلى مسامعي على أي حال، أو ربّما تمنعُني بقايا الضيّ الخافِت في عيني آدم الغائبة عني الآن، أو فقط منعني خوفي.

أنا في حاجةٍ إلى حديثٍ طويلٍ مع نور، هي دائمًا كانت الأقرب، هي التي كُنتُ أعودُ إليها حين تعصفُ بي حيرتي ويطرَحُني خيالي أرضًا بلا حراك.

كُلّنا في حاجةٍ إلى المَرد في النهاية، إلى ذاكَ الحُضن أو حتى الحائط الذي نعودُ إليه، رُكن نتكوّر في داخله لنحتمي من العالم كُله ومن أنفسنا، إلى يدٍ تُربّتُ وقت الضعف، كلّنا نُنكرُ ضعفنا ما استطعنا إلى أن يظهر على وجوهنا باديًا سافرًا مُعلنًا عن ذاته رُغمًا عنّا، وقتئذٍ جُلّ ما نحتاجُه هو مكانٌ للاختباء من كُل الحيرة، والتيه، والعبَث، ومن خوفنا وضعفنا.

كُلّنا ننكرُ الاحتياج وقَد جُبِلنا عليْه، نحِبُّ الظهور بمظهر القوي الذي لا تكسرهُ كاسرة، ولا يعصفُ بقلبه خوفٌ أو جزع، ولا تُسقطهُ أخطاؤه وعثراته، نحبُّ الظهور بأقوى صورةٍ ممكنة، لكننا أيضًا جُبِلنا على الضّعف، تُدركُنا الحيرةُ أينما ذهبنا وكيفما سِرنا، يُدركنا الوهنُ والتعب والسّكوت والضياعُ، نحتاجُ من وقتٍ إلى آخر إلى من يجِدُنا فقط لنتأكّد أننا ما زلنا هُنا.

دخلتُ مع نور إلى مقهى قديمٍ وهادئ اعتدنا الذهاب إليه قبلَ أن أجنح للعُزلة والوحدة منذُ شهور.

جلستُ كعادتي في كُرسيٍّ ملاصق لحائطٍ في رُكنِ المقهى، كنتُ جبانةً

جدًا، على الرُّغم أن كُل عوالمي الأخرى تتسمُ عادةً بالاتساع واللامحدودية واللاحواجز، إلا أنني هُنا في هذا العالم، دائمًا أجنحُ للحوائط والغُرف المغلقة، أتكوّرُ في الأركان، أغلقُ كافّة النوافذ وعلى الأخص نوافذ السيارات، لا أُطيقُ الاحتكاك الطويل بالبشر، وأخافهُم، وأتخفّى عنهم.

جلست نور في مقابلتي، وعلى الفور أتانا النادلُ فطلبتُ حليبًا بالشوكولاتة، وطلبت نور قهوة، وذاكَ من الاختلافات الواضحة بيني وبينَ نور، أنا لا أُطيقُ القهوة وهي تعشقُها وهي في نظري مُدمنةٌ من الدرجةِ الأولى.

حاولت نور فتحَ حديثٍ لكسرِ الملل وللهروب من حالة الصّدمة التي كُنتُ أغوصُ أنا فيها:

ـ قوليلي يا عالية، إيه أكتر حاجة بقت بتفرّحك؟

لم يكُن السؤال المُناسب في لحظةٍ كهذه. على غيرِ العادةِ لم أجِد إجابةً مُباشرة.

كُنتُ دائمًا تلكَ الفتاةِ التي لا يجِدُ أحباؤها أي صعوبةٍ في اختيارِ هداياها، كنتُ واضحةً أعرفُ جيدًا ما يُسعدُني ويعرفُ من حولي كذلك، وكُنت سهلةَ الإسعاد على أي حال، أفرحُ بأبسطِ الأشياء وأقلّها.

يبدو أنني كبُرتُ يا نور وأصابني شيءٌ من الحُزن والحيرة، كبُرت

وصارَ لساني لا ينطلِقُ مباشرةً حينَ أُسأَلُ عن مُسبباتِ سعادتي، صِرتُ أستغربُ السؤال وأتسمّر أمامهُ قليلًا وأبحثُ عن مبررات طرحه، أكرّرهُ وأتأمّلُ في الإجابات غيرِ الحقيقيةِ التي قد أُضطرُّ لها.

كَبرت وصِرت أُدركُ أن البلالين هواء، مُجرّدُ ذرّاتٍ مُتراصّةٍ من الهواء، وليست حُبيباتٍ طافيةً من البهجة المنقوعةِ في الألوان، تذكّرتُ بالونَ عبد الرحمن الأحمر، وأنني لم أكُن على الدرجةِ المطلوبةِ من السعادةِ حينَ تلقّيتُه، ليسَ بدافع المرض ولكن بدافِعِ نقصٍ ما في الرُّوح.

وتذكّرتُ اختفاء البالون واختفاء صاحبه وأن ذاك رُبّما يكون سببًا كافيًا لأخاف البلالين إلى الأبد.

صِرتُ أعرفُ أن غزلَ البنات ليسَ سوى سُكّر، وَلَيْسَ سَحَابًا من الجنّة، وأنهُ ليس حلوى الملائكة، هو فقط سكّر ويسبّب تسوّس الأسنان.

وأنّ الأغنيةَ التي أحبُّها الآن، سأملّها غدًا، وأنّ «رشا رزق» ليست جنيّةً مسحورة كما كنتُ أظُنّ في طفولتي، وأنّ أغانيها ليست سوى موسيقى وكلمات من الأرض وإليها، ولا علاقةَ لها بالجنيّات التي تَسْكُن السماء.

صِرتُ أعرفُ أنّ لياقتي وحالتي الصحيّة أقل مما أتخيّل، وأن التقافُز على الترامبولين مُرهِقٌ للغاية.

أصبحتُ أرى في تربية القطط مسؤولية، لأنني اقتنعتُ تمام الاقتناع أنّ كُل شيءٍ صارَ حِملًا ومسؤولية قد تتحوّلُ إلى وحشٍ يُطاردُني في خيالاتي يومًا ما، هكذا صِرتُ أشعُر مؤخرًا تجاهَ سيرشا.

صِرتُ أخافُ الإكثار من الشيكولاتة، والتي لم تَعُد تضُخّ في دمائي قدرًا من السيروتونين يوازي عدد السعرات الحرارية، الشيكولاتة لم تَعُد تعرفُ طريق السيروتونين في دمائي.

وصارَ الشاي باللبن، مجرّد مصدرٍ آخر للكافيين اللازم للاستيقاظ ومواجهة العالم، لم يَعُد المشروب السحري، لم أعُد أُراقب اختلاطَ بياضِ اللبن بسواد الشاي لخلق ذاكَ المزيج السَّماوِي، صارَ فقط مشروبًا ساخنًا كغيْره من المشاريب الساخنة.

لم يَعُد المشي في الشوارع الهادئة بصُحبةِ آدم متشابكي الأيدي فِعلًا مقبولًا أو محُببًّا بالنسبة لي، ولم يعُد لذلك فِعلُ الطمأنةِ الذي كان، صِرتُ أخافُ أشياءً لم أكُن أعلمُ بوجودها قبلًا، لولا أنني كبِرت.

تجاهلتُ سؤالَ نور في النهاية، لم يكُن لدي أيُّ رغبةٍ في افتعالِ إجابةٍ لا تمُتُّ للحقيقةِ بصِلة. قررتُ وللمرّة الأولى منذُ أشهُر أن أسأل عن الحادث:

ـ ايه اللي حصل يوم الحادثة يا نور؟

فاجأها السؤال لكنّها صارت تعرفُ كيف تكتُم صدماتها من كلامي،

رُبّما خوفًا من أن أنعزل من جديد. فتمالكت أعصابها وبدأت تحكي لي تفاصيل ذلكَ اليوم.

أنني كنتُ على خلافٍ حاد مع خالد، وأنني أخبرتُها بذهابي للحديث معه، وبعد ساعات جاءتها مُكالمةٌ من غريبٍ أخبرها بوجودي في المستشفى بعد حادث عنيف وأن رقمها كان آخر رقمٍ مطلوبٍ على هاتفي.

أنني ظللتُ بعدها في المشفى فاقدةً الوعي مدّة طويلة. وكذلك خالد. وفي النهاية أفقتُ من غيبوبتي وظلَّ هو راقدًا لُمدّةٍ أخرى تُقاربُ الشهرين، وكنتُ أزورهُ من آنٍ إلى آخر.

وفي النهاية، توقّفت مؤشراتُه الحيوية.

إذًا، خالد لم يُفِق من غيبوبته قط، وماتَ قبلَ أن أعتذر له، وقبل أن أُخبرهُ بأشياءٍ كثيرة كنت أُريدُ إخبارهُ بها. مات وهو يرتدي القميص الأزرق ذاته الذي كُنتُ أراهُ بهِ في عوالمي دائمًا. ماتَ في الحادث الذي تسبّبتُ فيه أنا على الأرجح.

أخبرتني نور أنني رفضتُ الحديث في الموضوع من وقتها، ورفضتُ حضور جنازة خالد أو عزائه، رُبّما لذلك لم أُصدّق يومًا أنه مات، واقتنعتُ بكُل عقلي ومشاعري أن كُل ما حدث هو أنّ خالد تركني وأننا افترقنا، وليسَ أنهُ فارق الحياةَ كُلّها جُملةً واحدة.

نور صرّحت لي بأنّها شكّت مرارًا أنني لم أُصدّق يومًا وفاة خالد، وأنها حاولت أكثر من مرة اصطحابي إلى قبره كي أُصدّق، وفشلت محاولاتها.

وأنّ شكوكها هدأت حِينَ توقّفتُ فجأةً عن الحديث عنه، وبعد ارتباطي بآدم. كانت تعتقدُ أن تلك كانت مؤشّراتٍ كافية أنني استسلمتُ أخيرًا لحقيقة الموت التي كنتُ أرفضها.

بعد أن أنهت نور حديثها وتنهّدت والتقطت أنفاسها، قطعتُ الصّمتَ الذي سادَ لدقائق معدودة:

- نور، أنا عارفة إن كلامي ممكن يبقى غريب، بس عاوزاكي تسمعيني.

هكذا بدأتُ كلامي ورأيتُ في عينيْ نور شغفًا واهتمامًا لم ألحظهُ منذُ مُدّة. لكنهُ امتزجَ أيضًا بشيءٍ من الخوف، هيَ كانت تعلمُ جيدًا أن تلك كانت لحظةً انتظَرَتها طويلًا.

لا أعرفُ كم من الوقتِ حكيتُ، ولم أشعُر بدقّاتِ السّاعة، فقط كُنتُ ألحظُ تبدُّل الناس على الطاولات من حولنا، وتبدُّل المشروبات على الطاولةِ أمامنا.

حكيتُ عن عوالمي الأخرى، بدأتُ بالحديث عن الحقولِ الملوّنة، وعن ظهور خالد الهادئ دائمًا، وعن دعوته لي أكثر من مرّة للذهاب معه لا أعلمُ إلى أين، عن أناسٍ أقتلهُم في عقلي، عن آدم وصورتهُ في

خيالي، وحكيتُ عن عبد الرحمن وتلكَ كانت ربّما القصّةُ الأكثرُ مفاجأةً لنور بينَ كُل ما حكيتُه. أخبرتُها عن الفراشةِ البيضاء ذات الخطوط الأرجوانية والحمراء المتقطّعة، وعن مقطوعاتِ الموسيقى، والكُتُب، وعن الرؤيا التي رأيتُها عن عبد الرحمن والمكتبة والسجادة الحمراء، وعن حقل اللافندر الذي كان يتوسّطهُ آدم، والزهرات البنفسجية التي كانت تنزفُ دمًا عند قطفها.

حكيتُ وحكيت ونور صامتةٌ مُنصتةٌ لا تقاطعُني بكلمة، ولا تستجيبُ سوى بانفعالاتٍ صامتةٍ تظهرُ على وجهها.

بعدها وصلتُ أخيرًا إلى غيبوبتي، والمنفى الذي نُفيتُ إليه، تفاصيل المدينة الخاوية والأيام الستّة المشؤومة.

أخبرتُها أنني صِرتُ أخلطُ بينَ الحقيقةِ والخيال، وأنني لم أعُد أثِقُ في أحد لأنني لا أثقُ في الحقائق. وأنني خائفة للغاية.

ثُمّ سكتّ فجأة، وكأن الصّمت قد نزل عليّ من السماء. كُنتُ أستشعرُ أنني أُحمّلُ نور الآن ما يفوقُ طاقتها على الاحتمال، وهذا هو جُلّ ما أفعلهُ مؤخرًا بكُل من حولي، بكُل من تُلامسُ دائرتهُم دائرتي. لم أعُد أقومُ بأبسط واجباتي تجاههم ومع ذلك أُطالبهُم بالتواجد متى أردت، وبالابتعادِ متى أردت.

أعلمُ جيدًا أنّهُم ليسوا مضطرّين لأن يغفروا تقصيري طيلة الوقت،

بعد أن أصبحت حُجّتي الدّائمة هي نقصَ الطاقة، وتطوّرَ الأمر إلى «الفقدان الكامل» للطاقة.

أعلمُ أنّهم مستهلكونَ ومُستنزفونَ أيضًا. ولا شيءَ يُجبرهُم على تحمُّل تقلّباتي المزاجية، ونوباتي الهيستيريّة، وانعدام اتزاني، وشرودي المستمر.

حُجّتي صارت مُتكرّرةً حدّ السّأم. وطاقتي لا تُستحدَثُ من العدَم ولكنّها تفنى، تفنى وتتلاشى باستمرار. لا طاقةَ للكلام، ولا للابتسام، ولا للإنصات، ولا طاقةَ بالوجع، ولا طاقةَ للاعتذارِ عن ذاكَ كُلّه.

ميزانُ احتمالي ضربَ عُمقَ الأرض. ومؤشّرُ الطاقة لا يتوقّف عن النّبض بالأحمر القاني.

أعلمُ جيدًا أنهُ لا ذنبَ لهُم في كُل ما يستهلكُ طاقتي ويستنفدُها. وأنّهُم لا يملُكونَ ما يُمكن أن يُعيدها إليّ.

ربّتت نور على كتفي في هدوء وانتقلت إلى الكُرسي المُجاورِ لي، وضعت يدها على كتفي بحُنوْ وأردفت:

- انتِ عارفة؟ كان نفسي تحكيلي من زمان، ما تقلقيش يا عالية، كُل حاجة هتبقى كويسة.

بلا تردّدٍ أخبرتها أنني أرغبُ في زيارةِ خالد. ابتسمت وأومأت برأسها موافقةً.

لم ينطق أحدُنا بكلمةٍ طول الطريقِ إلى حيث يسكُن خالد تحت التُراب. كانت الشّمسُ توشِكُ على المغيب فبَدت بُرتقاليّةً تميلُ إلى الاحمرار وتنشُرُ على كُل شيءٍ لونها المُحمر.

خطوتُ إلى المقبرةِ بخطواتٍ مُرتعشةٍ تسبقُني نور. حتى صِرتُ أمام قبرِه مُباشرةً والكلماتُ تنبضُ أمامي بالحقيقةِ الكاملة.

خالد محمد عصام

يونيو ١٩٨١ ـ مارس ٢٠٠٥

تأمُلتُ اللوحةَ قليلًا وقرأتُها عدّة مراتٍ في محاولةٍ للاقتناعِ بها حتى النُّخاع. أسندتُ يدي إلى القبر وقرأتُ الفاتحة لروح خالد للمرّة الأولى.

عُدنا إلى السيارة ونور تضعُ يدها على كتفي في محاولةٍ للطمأنة. عندَ باب السيارةِ سمعتُ نور ترُد على أمي في الهاتف وتطمئنُها.

سادَ الصّمت مجددًا في السيارة حتى وصلنا إلى منزلي وقبلَ أن أنزل من السيارة سألتها:

ـ نور ما تيجي تباتي معايا.

وافقت بعد أن أخذت مني وعدًا بألا نتحدّث فيما حكيتُه في المقهى الليلة.

لسببٍ ما كُنتُ أرغبُ في الهروبِ من عوالمي الأخرى ولو قليلًا،

ووجودُ نور حولي طيلةَ الوقت يمنعني من الرحيل إلى هناك.

صعدنا مباشرةً إلى غرفتي، وناولتُ نور بيجامةً ورديّةً اعتادت ارتداءها حينَ تقضي الليلةَ معي. وأحضرت أمي صينيةً مملوءةً بالسندويتشات وكوبين من الشاي باللبن، وصينيةً أخرى عليها أصنافٌ مختلفةٌ من البسكويت.

قبلَ أن تخرُجَ أمي من الغرفة سألتُها عن العلبة الصغيرة التي كانت تحوي كروتَ الزيارات في فترة غيبوبتي.

أخبرتني عن مكانها في الدُّرج، فأخرجتها وشرعتُ أقرأُ الأسماء والدعوات بالشّفاء وما إلى ذلك. نظرتُ إلى نور فوجدتها قد غطّت في نومٍ عميق، اليومُ كانَ مُرهقًا على أي حال ومشحونًا بكم هائلٍ من المشاعر والأفكار والصدمات.

كُنتُ مُنهكة، فأخرجتُ سيرشا من الغُرفةِ وأطفأتُ الأنوار وأسدلتُ الستائر واستسلمتُ لنومٍ بلا أحلام.

(١٠)

أيقظني القلقُ والتوتّر والتفكير المتواصل باكرًا، تعمّدتُ إصدار بعض الضجّة في حركتي في الغرفة لإيقاظ نور التي استيقظت مُنزعجةً وهي تنظُرُ إلى الساعة قبلَ أن ترمقني بنظرةٍ نارية وتدفنُ رأسها في الوسادةِ من جديد.

كُنتُ أُفكّر، بعدَ أن صارت بعضُ الحقائق أكثر وضوحًا الآن، رُبّما صارَ عليّ إعادةُ وزن الأمور، أو إصلاحُ بعض ما أفسدتُه عن قصدٍ أو عن حُسن نيّة.

اتجهتُ إلى الصندوقِ الوردي المدفونِ في أبعدِ نُقطةٍ ممكنة في قَعرِ الدولاب، أخرجتهُ بهدوء في محاولةٍ لعدم إيقاظ نور التي لن يُعجبها ما أفعله على أي حال.

أخرجتُ مُذكّرة خالد الزرقاء من وسط الكراكيب، جلستُ على الأرض في مواجهةِ الدولاب، واخترتُ إحدى الصفحات الخاوية، وبدأتُ في تدوينِ ما وصلتُ إليه من حقائق رُبّما لستُ متأكّدةً من ثباتها لكن هي كُل ما أملُكُه في الوقت الحاضر.

(الحقيقةُ أنّ خيالي لم يكُن ليُصبح بهذه الوحشية والقسوة لولا فتكُ الذّاكرة وأوجاعها به، رُبّما لو ظلّ الواقعُ واقعًا والخيالُ خيالًا لكانت الأمورُ أقلّ حيرة وأقلّ تدميرًا.

جَلبُ خالد من الماضي والتمسُّك بوجوده وبرغبتي في بقائه وبرغبته في أن أذهب لأكونَ معه، رُبّما كانت أسوأ الألاعيب التي مارستُها ضدّ نفسي أو مارسها عقلي ضدّي، الأسوأ على الإطلاق، وساعدني عليْها عجزي عن تصديق الموت أو فهمه أو مواجهته كحقيقةٍ تحدُث وستستمرُّ في الحدوث، ورغبتي المستميتة في التخلُّص من الشعور بذنب أنني رُبّما أكونُ قد تسببتُ في موتِ شخصٍ ما، ولم يكن هذا الشخصُ عابر سبيلٍ، أو وجهًا لا أعرفه، بل حُبّي الأول وحقيقتي الأولى، قبلَ أن يعرفَ عقلي الكذب والحيرة.

ولأنّ ذلك لم يكُن كافيًا للهروب الكامِل، طوّر عقلي طريقةً أخرى للهرب من التعامُل مع البشر، بخلق شخصٍ لا وجودَ له كعبد الرحمن، لكنّهُ كان يحملُ كافّة مواصفات دائرةِ الأمان التي أُريدها، كُل الصفاتِ

التي أحببتُها يومًا في خالد، ابتسامتهُ الدائمة حتى في أسوأ الظروف، وقوفه في ظهري كسندٍ ورفيقٍ وصديق في كُل الأحوال، قُدرتهُ على طمأنتي حتى في أكثر مراحل خوفي من الناسِ كلها، فصِرتُ أحكي لعبد الرحمن ما لا أُخبرُ بهِ غيره، لأنني كنتُ أضمن أنهُ لن يواجهني بما لا أريدُ مواجهته، ولأنني كنتُ أملُك القدرة على إسكاته متى أردت وإخفائه متى أردت.

كان عبد الرحمن حقيقيًا للغاية، بطريقةٍ مثالية، كان يُشبهني لأنهُ كان يحملُ أيضًا أجزاء مني، ويشبهُ خالد لأنهُ جزءٌ منه أيضًا بما أضفيتُه عليه من الصفاتِ التي أذكُرُها عن خالد.

عبد الرحمن كان يُمثّل دائرة الأمان بكُل ما تحملُ كلمةُ الأمانِ من معانٍ، والشخص الوحيد الذي كانَ يعرفُ أكثر من غيره، ولأنني أهرُب إليه من خالد، تعمّدتُ ألا أُخبره شيئًا عن خالد، لذا صارَ عالمُ عبد الرحمن مُنفَصِلًا تمامًا عن عالمِ خالد، كخطّينِ متوازيينِ كُنتُ أعتقدُ أنهما لن يلتقيا أبدًا.

وكنتُ أهرُب بكليهما من آدم، رُغمَ أنهُ كان الحقيقةَ الوحيدة وسط كُل هذا الهرَج.

آدم كان يحتاجُ إلى الكثير من المواجهات مع أفكاري، وتلك مواجهاتٌ

لم يكُن ليقبلَها عقلي، وعلى رأسها مواجهةُ فكرة موت خالد، وفكرةُ أنهُ أنه لا يوجدُ شخصٌ بمثالية عبد الرحمن.

أعلمُ أنني لستُ مستعدّةً بعد لإعادة إقحام آدم في تفاصيل حياتي، لأنّ ما أُعانيه للَملَمةِ تلكَ التفاصيل كان كافيًا جدًا، وعودةُ آدم كانت ستزيدُ من حدّة تفاصيلي وتشعّبُها.

لم أكُن جاهزة رُغمَ رغبتي العارمة في عودته، واحتياجي الشديد لوجوده.)

أنهيتُ الكتابةَ ببضعَ تواريخٍ مُعنونَة، كتاريخِ دخولي إلى المشفى، وتاريخِ ظهور الفراشة، وظهور عبد الرحمن، واوّل مرةٍ قتلتُ آدم في أحلامي، وبدءُ الغيبوبة ومن بعدها الإفاقة.

أغلقتُ المذكّرة الزرقاء التي صارت الآن تحتفظُ بأفكاري وأسراري إلى جانب كلماتِ خالد، وأعدتُها إلى الصندوق والذي أعدتُه بدوره إلى مكانه في أبعدِ مكانٍ في رُكن الدولاب.

كانت نور بدأت تستفيقُ من نومها. نظَرت إلى الساعةِ قبل أن تنتفض مفزوعةً لترتدي ملابسها بأقصى سُرعةٍ ممكنة وتغادرُ مودّعة بعد أن أدركت تأخّرها على محاضرة الجامعة.

لا أدري تحديدًا متى سأتمكّنُ من العودةِ إلى الجامعة، ليسَ لديّ مانعٌ صحيٌّ الآن، فصحّتي ليست متدهورةً إلى درجة ملازمة البيت، لكنّي لا أملُكُ من القوة النفسية ما يُمكّنني من العودة إلى هذا المكان.

كُلُّ رُكنٍ في الجامعة سيُذكّرُني بأكثر ما يُثيرُ حيرتي، خاصةً بعدما صارَ حضورُ خالد إلزاميًا الآن، ليسَ في خيالي ولكن في ذاكرتي، ورُبّما يكونُ ذلكَ سببًا في اختلاط ذكرياتي ببعضها.

المقعد الأخضر الطويل الذي التقيتُ عنده آدم للمرّةِ الأولى، هو نفسهُ الذي حدثَ عندهُ أوّل خلافٍ حقيقيٍّ مع خالد.

الشارعُ الذي اعتدتُ أن أسيرَ فيه في الأيام الماطرة ويدي مُشبّكةٌ في يد آدم، هو نفسه الذي لطالما سِرتُ فيه مع خالد.

لم يكُن الأمرُ صعبًا على التقبُّلِ في السابق لأنّني كُنتُ أتجاهلُ مرور خالد من حياتي، فكُنتُ أحاول خداع ذاكرتي. أما الآن فقد صارَ كُل شيءٍ واضحًا، وصارت الحقيقةُ تضغطُ عليّ بكُل السّفور.

أنا أيضًا ما زلت غيرَ مُستعدّةً لمواجهة الناس، أصدقائي وزملائي وأساتذتي، ولن أُطيقَ سماع كلمة «حمدلله ع السلامة» من كُل شخصٍ سيرى وجهي.

هُم لا يعرفونَ من أينَ أعودُ إليهم، كُل ظنّهم أنها كانت وَعكةً صحيّةً في المشفى، هُم لا يعرفون الجحيمَ الذي مررتُ بهِ في رأسي.

أنا لم أعُد أنا، لم أعُد ذاتَ الفتاةِ التي دخلت إلى المشفى منذُ أسبوعين، رُبّما عليّ التأكّد من كافّة الحقائق أولًا لأعرف من أنا الآن، وليصيرَ عندي من القوة ما يكفي لمواجهةِ الناس الذينَ لا يعرفونَ شيئًا عما يجري بداخلي، كي لا تُزعجني كلماتهم، وكي لا أرى في عيونهم نظرات تعاطُفٍ أو شفقة، وكي لا يُصوّرهم لي عقلي كوحوشٍ ضاريةٍ ترغبُ في نهشِ لحمي، وكي أعرفُ كيف أُجيبُ بابتسامةٍ غيرِ مُبالية على همساتهم لبعضهم بأنني مجنونة لأنهم سمعوا شيئًا من هنا أو هناك.

جلستُ إلى سريري أتأمّلُ جُدرانَ الغُرفة كأنّي أستكشفها للمرة الأولى.

لم يُنبّهني سوى صوتِ هاتفي يرِن والشاشةُ اللامعةُ تُضيء باسم (آدم).

ابتسمتُ ابتسامةً مكسورة وسرَت الرّعشةُ في جسدي، رعشةٌ أعرفُها وأُحبّها وأطمئنُّ لها، الآن أشعُر كم أُريدُ الاستنادَ على كتفهِ والاحتماءِ بهِ لمواجهةِ العالم كُلّه، وكم أريدُ احتضانهُ وإخفاءهُ عن قُبح العالم ليرى كُل الجمالِ فقط.

كم أريدُ أن أحميهِ من لوثاتي وجنوني، وجنون الكون، كم أريدُ اصطحابهُ إلى حقل اللافندر، وحدنا بلا ساعةٍ ولا بوصلة، لأُخبرَه بكُل ما قد صارَ إليهِ عالمي بدونه.

أن أخبره أن عالمي صارَ كجناحِ فراشةٍ وحيد، برقّةٍ غيْرِ مُكتملة، ينثُرُ في الأفقِ ألوانًا سريعة الزوال، فلا يترُكُ من خلفهِ أثر.

عالمي أصبح على هذا القدرِ من الخفّةِ والشفافيةِ والتلاشي، لم يعُد لهُ نفسُ القوّةِ التي كانت، لم يعُد «مؤثّرًا».

أنني صرتُ أتلاشى أنا ذاتي إلى العدم برقّةِ فراشةٍ كانت في يومٍ ما أقرب إليّ منه ومن كُل ما في عالمه وواقعه.

وأخبرهُ كم أنا مُرهقةٌ ومُستنزفةٌ حتى النّخاع، وأنّ معركتي لا بُد لها من نهايةٍ مُرضيةٍ تُريحُ القلوبَ المتضرّرةَ قبلَ أن تهترئ، قلبي وقلبه، وقلوبَ آخرين تورّطوا في معركةٍ لا ناقةَ لهُم فيها ولا جمَل.

نهايةً لا تعصفُ بنا وبما ما زلنا نحملهُ في قلوبنا من الأشياء الحلوة، نهايةً تسمحُ لنا باستكمال الرّحلة، وتترُكُ لنا شيئًا من القوّةِ والخيال الذي نحتاجُ إليه في معارك قادمة.

وأخبرهُ أنني أريدُ أن أضَع أسلحتي كُلّها جانبًا، وأحملَ بالوناتي الملوّنةَ

وأسيرُ معهُ على حافّة الرصيف الموازي لمقهانا المُفضّل عند الغروب.

وأنهُ لم يعُد لديّ طاقةٌ للاقتتال أو لرؤيةِ من حولي وهم يتساقطونَ جُثثًا في خيالي، وأنّ الفراشات لا يجبُ أن تكونَ مصدر إرهاقٍ وتعب، لأنّ دورها هو أن تحملَ الحُب، ولأنّها ستظلُّ للأبد مخلوقاتي المُفضّلة، وسأظلُّ أُصدّقُ أنّها كائناتٌ سحريّةٌ، على صِغَر حجمها وهشاشتها فإنها الأقوى على الإطلاق.

أنني أُريدُ التصالُح مع الماضي لا الهرب منه، ولا قتاله، ولا اللهاث خلفه، فقط أن أتصالح معه وأقبله كما هو، بكُل حقائقه وخاصةً المُخيفةَ منها.

وأنني لم أعُد أريدُ الهرب، وأن وجودهُ سيضمنُ لي الوجود في هذا الواقع، سيضمنُ لي مكانًا وقلبًا أسكُنه.

وأنني أريدُ تصديقَ الموت، وأُريدُ العودة النهائية من الفقد، لا أن أفقِد ذاتي مع ما فقدت.

ولا أريدُه أن يتخلّى عنّي الآنَ أو غدًا. لكنّي اخترتُ الهُدنة والانتظار.

بعدَ توقّف الهاتف عن الرنين، رأيتُ الفراشةَ تُحلّقُ خارجةً من فُتحةٍ صغيرةٍ في أحدِ أدراجِ دولابي.

بيضاء بخطوطٍ حمراءَ وأرجوانيّةٍ مُتقطّعة.

وأصداءُ أصواتٍ ملائكيةٍ بعيدةٍ تشدو:

(هُنا الخيالُ والعجَب،

هُنا الجمالُ عن كَثَب.

القلبُ يُزهِرُ بالبنفسَجِ،

والرّوح لا تشكو تعَب)

مرجُ اللّافندر المُزهِر، برائحته المُهدّئة المُحبّبة، والنهرُ يقسمُه إلى نصفين، يجري في هدوءٍ واللونُ البنفسجي الفاتحُ في الجانبية، على مدّ البصر بلا نهاية.

لا أحدَ يظهرُ في الأرجاء قريبًا أو بعيدًا. والشجرةُ شامخةٌ قُرب النهر لا ظلّ لها.

اقتربتُ من الشجرةِ وجلستُ تحتها، وجدتُ بجانبي ورقةً بيضاء وقطعةً من الخوصِ وزُجاجةَ حبرٍ بنفسجيّ اللون.

أمسكتُها وابتدأتُ رسالتي التي بدأتُها بـ «عزيزي آدم»، والكلماتُ تخرُجُ إلى الورقةِ بانسيابٍ لا يتوقّف وكأنني أحفظها.

أنهيتُ الكتابة وختمتُها بـ«عالية» قبلَ أن أُغمضَ عيني لثوانٍ قبلَ أن أفتحها في غُرفتي.

كانت تلكَ هي المرةُ الأولى منذُ مدّة التي أمتلكُ فيها السيطرة على عودتي، لم أنتظر نداءً من أحد، ولا سقطةً مؤلمةً تعصرُ ضلوعي.

ليسَ من الضروري أن يظلَّ كلُّ الخيالِ خيالًا، لذا كان أوّلُ ما فعلتهُ أن أخرجتُ ورقةً وقلَمًا بعدَ أن عَزَمتُ أمري بإعادةِ كتابة رسالتي لإرسالها إلى آدم:

(صبرًا، فسوفَ تطرُقُ شُبّاكك الحَمامةُ التي غابت عنكَ مُنذُ مُدّةٍ طويلة، وستُلقي إليكَ التحيّةَ، وترمي عليكَ السّلام وتهمسُ لقلبِكَ ببِضعِ كلماتٍ مُهَمهَمة.

«حبيبتُك أرضٌ شاسعةٌ من خيال، لكنّها تنتمي إليك وتعلمُ أنّ لها مساحةً تكفيها وخيالها في قلبِك بعدَ أن ضاقَ بها وِسعُ الكون، وضيقُ الكونِ يصيرُ بينَ جنباتِ قلبِكَ براحًا وسيعًا.»

ستُضَمّدُ جُرحَها النّازف، وتربّتُ على جناحِها المكسور ليهدأَ خوفُها قليلًا.

سوفَ تعودُ المراكبُ الورقيّةُ الملوّنة إلى بحر القهوةِ والشوكولا الهادئ في عينيك، مُطمئنةً غير خائفةٍ من موجٍ أو غرق.

فسلامٌ إليكَ حيثُ تكون، وسلامٌ لقلبِكَ اللؤلؤي المهموم، الذي لم يعرف السّلامَ بعد، وسلامٌ على حبّكَ المكنون، وعلى البحرِ في عيونِك، والشّمس على جبينِك، وعلى فَجرِكَ المُتأخّر، وغياباتِكَ الطويلة، وحضورِكَ الخفيف.

وسلامٌ على أغنياتِكَ الهادئة، وموسيقاكَ الخافتة، وسلامٌ على السّلام في عِشقك.

سلامٌ عليكَ وإليك وإلى روحِكَ الصّافية وقلبكَ الأخضر. وعلى انتظارِك الذي لا يُدركِهُ الملل، ولا يُشقيهِ طولُ الأمد.)

عالية.

بين إغماءة وإفاقة

بينَ إغماءةٍ وإفاقة، تقفُ "عالية" على حافّة الحلم، تصيرُ مُعلّقةً بينَ الحُلم واليقظة، وتتأرجح بينَ عالمين، أحدهما أقرب للواقع والآخر أقرب للخيال والحلم، فتغرقُ تارةً في عالمٍ من الفراشاتِ يُشبه الأحلام و تُحيطها حقولٌ من اللافندر تكسوها بالسعادة والحب، وتارةً تسقُط في عالمٍ من الألم والمشاكل والضغوط المستمرة، فأيّ العالمين يكونُ له الغَلَبة، وأي العالمين أفضل وأبقى ؟!



هديل عبدالسلام

كاتبة مصرية تخرجت في كلية الصيدلة جامعة القاهرة ، تعمل في مجال الرسم والفنون ، ولها العديد من المقالات على المواقع الالكترونية ، صدر لها كتابها الأول " عزيزي القادم من بلوتو " في 2013 عن دار دَوّن

KARIM ADAM DESIGNS



978-977-806-003-4
9 789778 060034 >

